M A J E D S U L I M A N

ماجد سليمان

نِسْوَة السُّوق العتيق

سيرة روائية

ماجد سليمان

نِسْوَة السُّوق العتيق

ماجد سليمان

نِسْوَة السُّوق العتيق

سيرة روائية

رقم الإيداع 501 / 1442

ردمك 5 – 5338 – 03 – 603 – 978

2020م

المحتويات

الإهداء 7

استهلال 9

الفصل الأوَّل: عيُّوش 11

الفصل الثَّاني: مضاوي 49

الإهـداء

إلى النَّجديَّتين: عَيُّوش ومضاوي، مِن نِسوةِ السُّوق الدَّاخلي، وإِنْ كانتا بأسماء أخرى وملامح مختلفة.

استهلال

هذا النص، ليس تسجيلاً دقيقاً كما يُظن، إنما مُحاكاة لظروف وأحداث واقعيّة بين عام 1990م وعام 2002م، مكانها السُّوق الدَّاخلي في حي السليمانية بمدينَتِي السّيح، إضافة إلى أن الشوارع والأمكنة المذكورة حقيقيّة ومُثبتة، وما ذُكر يجب ألا يُحال إلى أشخاصٍ حقيقيين، وكما قال نزار قباني رحمه الله: الفن هو صُنعٌ للطبيعة مرّة ثانية، على صورةٍ أكمل، ونسقٍ أروع.

وقد روى لي أحد كبار السن قال: هذا العام 2020م، يُصبح عُمُرُ السُّوق الدَّاخلي 68 عاماً.

م . س

الفصل الأوَّل:
عَـيُّـوش

I

ـ وَسِّعْنَ لي قليلاً

قالت ضرّتي مضاوي، ابنة الواحدة والثلاثين، وهي تلكز أعجاز النسوة المتزاحمات على بسطة فتون، بائعة حاجيات النساء، وحين اخترقتهن، راحت تلتقط من العلب المصفوفة على صحاف واسعة، قالت مُلقية سؤالها السريع على سمع فتون صاحبة البسطة:

ـ ما عندك صبغة شعر اليوم يا خاله؟

أجابتها فتون وهي تحك طرف شحمها النازل على وركها الأيسر:

ـ خلصو من أمس فيك تجي المسا بتلائيه

مضت مضاوي تجوس بيمناها علب البخور والحناء والأصباغ الصغيرة التي تعرضها فتون الفلسطينية كل فترة بشكل يختلف عن سابقه.

وحين تجاوزنا ـ أنا ومضاوي ـ هبّت ريح انحسر على إثرها ثوب مضاوي، فشعّت ساقها البيضاء الدقيقة، فخاتلها شبّان قُرويّون يقتعدون

صفيحاً مَعدنيّاً قُرب متجر لبيع لوازم الرجال من ملبوسات وأحذية وجوارب:

ـ فاتنة!

ـ كنهر رقراق! (قال الثاني)

ـ بل دافئة! (قال الثالث)

لاح قربهم رجل ضحم كأنه عجل، يعبر السوق كثيراً وعيناه الصغيرتان تتدحرجان خلف المليحات من عابرات الزقاق، أو المتبضّعات اللواتي يردن على المتاجر القريبة.

الطريق إلى بيتنا، يتَفَرّق عليه الصفيح والحديد الصدئ فوق أرصفة مُتشقّقة، وَمُهملة عليها أكوام النفايات الواقعة أمام المتاجر التي تبيع البضاعة الرخيصة، تجاورها بيوت حقيرة، وبعض آليات خَرِبة، كان الشارع منحدراً، في الشتاء تلفّه البرودة، ويطويه لون الرماد، وضجيج السيارات يصبح أكثر صخباً، سنواتٌ لا تنجب سوى انحسارٍ لضوء الحياة، في صدورٍ تدمدم بالبكاء.

أنا في الطابق الأرضي ومضاوي في الطابق العلوي، وحين كان الليل مضت عيناي تتخبّطان في نعاسٍ ثقيل، كان صوت البراء في الجوار، وكأنه يحلم، فإذ به نائم، قد جاء متأخراً كعادته، ألقيت ببصري المائع عليه، كان عَرَقهُ المتعرّج على ثيابه نديَّاً وذا رائحة شديدة الكراهة، فقد اتضح لي أنه للتو عاد، بطنه الزائدة، وكتفاه الممتلئان، ولحيته غير المهذّبة، كلها أشياء لا يريد تغييرها أو التخلص منها، أيقظته، وبالكاد

فتح عينيه ثم عاد بشخير متّصل، وهو يميل إلى اليسار حتى سقطت يمناه على الأرض، فعطّت رائحته الكريهة ضعفين، أدركت أنه لم يستحم من أيام، عاد للتو، بعد أن أمضى أربعة أيام في مخيم الجماعات التي تتواصل معه عبر طرق متعددة، لدرجة أن حَرَمَ نفسه الاستحمام حتى الآن، فقبل أربعة أيام وهو خارج إلى من أسماهم "الإخوان"، سألته متى يعود إلا أنه لم يجبني، أطال النظر فيّ مزدرياً قولي، فأغمد أصابعه اليسرى في لحيته وأدار لي ظهره، وخرج ولكتفيه الممتلئتين اهتزاز بطيء، وها هو يعود لينطرحَ كجيفة شديدة النتانة.

زواجي دام عامين وثلاثة أشهر، لم يكن يصغي إليّ إطلاقاً، ولا يطيل المكوث في البيت، لكني ألفت حياتي معه، رغم ما بها من تعاسة المعشر والملبس والمأكل والمشرب، وألفت سياسته الحياتية، فهو كثير الوعيد لأمة تقبع خارج الحدود، تدور قبضته في الهواء مُتوعّداً كلما جاء ذكرها على لسانه، فقد سمعته ذات ليل وهو نائم ينادي:

"سأقتلكم جميعاً، لا مكان لليهود في جزيرة العرب"

كانت جملته هذه تتردّد على لسانه مذ تزوجني، يمضي ليلةً عندي وليلتين عند صحبه من أهل الدعوة كما أسماهم، بعد كل هذه المدة، ولندرة نومه معي، بدأت أشك في جمالي، وأستنكر أنوثتي، فقد أمضى وقتاً لا يضاجعني إلا يسيراً، كمضاجعة القطط بل أسوأ، يسقط علي كثور ذبيح، وما إن تمضي الدقائق القلائل حتى ينهض من فوقي ككلبٍ طريد.

وحين يبتعد متمايلاً كجثّة مُترهّلة، أرمقه كهرّة جريحة، بات البحث عن أنوثتي أسطورة لن تكون، دحرجت بصري على عُريي الذي لم يأنس بضجيع يكتشف أسراره، ويعبر تضاريسه عبور الفاحص، ويفكّ مغاليق الروح الراقدة فيه.

حين انصرف ذات ضحى، وقفت أمام مرآةٍ مشطورة، بالكاد تكشف جسمي المترهل، انتبهت لقطع اللحم المائلة على وركي، ونهديّ الصغيرين المتباعدين، وبطني الزائدة، ومؤخرتي المتهدلة قليلاً، فخذاي أيضاً كانا مملوءين بالخطوط الدهنية المتعرجة، مسامات ساقيّ كانت فاضحة، كل هذه الفضائح الجسمية أسترها بقفطان شفاف يميل إلى الخضرة، تلبيةً للبراء، الذي أدمنت حديثه عن المتبرجات من الكافرات، حين يمضي في نعتهنّ النعت الذي أضحى لصيق لسانه، وأنّ عليَّ ألّا أتشبّه بهن في اللباس، فقد أقنعني أن البنطال حرام، والقمصان الضيقة حرام، واللباس القصير حرام، وخروجي معه بالنقاب حرام، ودخولي السوق بمفردي حرام، وعملي حرام، وسفري حرام، حتى إنّي كدت أصل بعد كل هذه القائمة الطويلة من المحرمات بأن وجودي في الحياة حرام، وأن الحياة لم تخلق لي.

خبطت على ردفي فاهتز اهتزاز المخدور، لقد بات شعوري بالأنوثة مُنتزعاً تماماً، قررت إقناعه بأني زوجة لا خادمة، إلا أنّي تراجعت فوراً لمعرفتي بجوابه: المرأة مكانها البيت.

لم يكن يستفزني غير الفتوى الشهيرة التي استمد حضورها من شيخٍ أتخم بيتي بأشرطته، وكتيّباته المتفجّرة بكل ما يُعين على كره الحياة:

"لا تخرج المرأة إلا مرتين في العمر، الأولى من بيت أهلها إلى بيت زوجها، والثانية من بيت زوجها إلى المقبرة".

كلما تذكرت فتواه هذه، أضحك من هولها ضحكاً يشبه البكاء، يتباهى بها لأنها فتوى شيخه الشهير في الحي المجاور، ذلك الشيخ الذي أمطر النساء بفتاواه القرينة لأحكام التعزير.

سيحمل أبي وِزْرَ ما بي، وستلحقه اللعنة كما لحقت بالبراء، خادما الصرح الإرهابي أينما كان، فأبي زَوَّجني إياه إعجاباً بلحيته الطويلة وثوبه القصير، وتملّقه بالدين، وكثرة حديثه عن الزهد في الدنيا والطمع في الآخرة، لا أنسى انفراد ملامحهما حين يردد البراء جملته الكريهة: الصدع بالحق.

فألعنهما في نفسي قائلة: صُدعْتُما في قعر جهنم.

II

استويت ذات مساء على فراشي، كانت رائحة الملاءة الصفراء مُنفِّرة، نظرت إلى وسادة البراء كانت مُتسخة بدهن شعره، فهو كثير الاعتزاز بنثر الزيت الذي يبصق فيه مشائخه، ورموز الدين في عالمه المليء بالكره، أما ثيابه القصيرة فكانت تثير ضحكي، أذكر أني ذات مساء، شبّهتُ قِصَر ثوبهِ بقصر لباس نومي الفاقع بلون الزهر، فأرعبني احمرار عينيه واستدارتهما بشكل برهن شدة غضبه، وانتفاخ خديه اللذين لا يبينان من شعر لحيته الكثة، فصاح في وجهي:

ـ تستهزين، ما أسفل من الكعبين في النار، تبين ادخل النار؟ هذي نهاية المسلسلات اللي اخلفت افكاركم.

فاستدار إلى التلفاز الصغير الذي جاءني هدية من إحدى جاراتي بدافع الشفقة، والتقطه بخفة، فصحت به ألا يفعل، إلا أن توسّلي لم يثنه عن تحطيمه، رأيت كسوره منثورة بشكل أثار حزني.

عاد منتصف الليل، وكأن شيئاً لم يكن، كنت نائمة ووجهي إلى الحائط، لا أريد رؤيته بعد فعلته التي هزت أغصان الندم في قلبي، اضطجع جانبي، وبالكاد استوى لشدة امتلاء أطرافه، فقد كان بديناً بشكل يثير القرف في النفس، بطنه الزائدة كانت تشعرني بانعدام أنوثتي، تظاهرت بالنوم رغبة بعدم الحديث معه حتى الصباح، شعرت بيده وهي تجوس فخذيّ من خلف قفطاني الرخيص، تغافلت كأني لم أشعر به اقتربت أنفاسه الثقيلة من شحمة أذني، وراحت يده الكبيرة ترفع قفطاني، لم ألتفت ولم أبدِ أية حركة، فقد اشتد بكائي من الداخل، وانشطرت روحي إلى نصفين عزّ أن يلتحما، عندها رفعت من قفطاني، وأسلمت له نفسي دون مشاعر، حتى أطلق زفيراً ثقيلاً وارتمى جانباً وكأن جسمه الممتلئ صخرة سقطت من السطح، وراح شخيره يعلو لدرجة أني لم أنم تلك الليلة.

في ضُّحى الغد، رأيته متكئاً يمسح بقطعة القماش الخضراء سلاحاً من نوع كلاشينكوف، يتسع لثلاثين ذخيرة، سألته عنه ورمقني بعين ساخطة ولم يُجب.

في المساء، انزوى في غرفة صغيرة خصّصتها لضيافة جاراتي من الحي، أغلق على نفسه، تاركاً قرقعة لأغراضٍ جلبها أحدهم له في صندوق خاص بالأحذية الرجالية، لم تكن قرقعة لحذاء، كان صوتاً لقطع حديدية صغيرة، وراح طيلة الليل يدعو بصوت باكٍ مرتعش، ألصقت صدغي على الباب، سمعته يدعو بدعاء مألوف وآخر غريب، فطنت

لأنفه وهو يسحب مخاطه الساقط عن بكاء حار، جاهدت لسماع ما يمكن فهمه من قيامه بعمل كهذا، سمعته وبالكاد سمعته يقلب صفحات المصحف ويقرأ آيات عن الجهاد بصوت المحتقن المتوعّد، قرأها مراراً وبنفس النبرة الجهادية التي تملّكت نفسه قبل صوته الذي طالما أمطرني بوعيدٍ لليهود والنصارى وكل من ليس على نهج المسلمين السُّنَّة.

لم يكن الغد كاشفاً عن خبرٍ أو أمرٍ قد ظننته، فجاء إليه عصراً ثلاثة من أصحابه الذين اعتدت زيارتهم له كل فترة وأخرى لا يفصل بينهما أكثر من أسبوع، وطلب مني الصعود إلى ضرّتي مضاوي، والمكوث عندها حتى ينصرف أصحابه، إلا أني تظاهرت بذلك، فصوت ضحكهم من داخل حجرة الرجال لا يريح، أشعر أنه ضحك لعين، تدفعه أنفس مريضة بالدمار وتوزيع الخراب على الديار.

التقطت نفسي حين أغلق عليه وضيوفه باب الحجرة، بعد أن صنعت لهم الشاي والقهوة، فعدوت على السلم تجاه باب مضاوي، كان عليَّ أن أفهم ما يدبّره هو وصحبه الذين قضوا شهوراً على هذا النحو من الحضور المغلق المنتهي بقرقعة الأسلحة الصغيرة، وصناديق الذخيرة المرصوصة.

قرعت بظهر يدي الباب ففتحت مضاوي وهي تشير بيديها سائلة ماذا عندهم، أشرت لها بسبابتي أن تصمت، وأنا أطل من أعلى السلم على باب حجرة الرجال وأشتمهم في نفسي، لكن مضاوي أقنعتني بأني لن أفلح، بل أيقظت خوفي فغدا طوقاً مانعاً، فخشيت أن

يصطادني البراء وأنا أُرسل سمعي إلى اجتماعهم فيرسلني إلى مأساة لست بحجمها.

III

رفض البراء رفضاً كبيراً أن يطلب للبيت خدمة الهاتف، الذي أراه في بيوت الجارات والأهل والأخوال ولم أره في بيتي، تلك الآلة التي تنبسط على ظهرها أزرار بلغت اثني عشر زرّاً، تجيء أعلاها بشكل طولي سماعة بحجم الكف متصلة بهذا المكعب عبر سلك حلزوني أنيق اللون.

كما أني تعبت من الوحدة في هذه البيت، وبات الخروج أمراً بالغ التعقيد، خسرت خروجي للتنفس مشياً في السوق الداخلي أو لزيارة جاراتي من اللواتي نصبن مظلاتهن القماشية أو الخشبية.

يقع السوق الداخلي غرب حارتنا، أزقته الضيقة تدوّن ذكريات تلك الأيام المنزوعة من دفتر العمر، أصوات الباعة تدق شباك غرفتي الخشبي، وضجيج السيّارات يعبرنا كل لحظة، نصفه الغربي سوق النساء، والذي نتعارف على تسميته شعبياً "سوق الحريم" تُفتح مداخله إلى الشرق، حيث تتناثر على شريطه بُسُطٌ وطاولات عرضٍ شعبية، لنسوة

ذوات أعمار متفاوته، وانتماءات إقليمية متنوِّعة، يبعن البضائع الرائجة الرخيصة، والمستلزمات البسيطة كالبخور والكساوي المختلفة، وأخريات يبعن المأكولات الشعبية الشهيرة كالأقِط والسمسم وبعض المعجّنات المحشوّة، تطل من خلفهنّ محال الذهب، ودكاكين صغيرة، ينفلق من بينها باتجاه الغرب ممر طويل يذهب في عمق السوق، حيث تتقابل عن يمين ويسار الداخل طاولات الصاغة في فن تصنيع وتشكيل الحلي، وأخرى لبيع وإصلاح الساعات اليدوية.

يُقابل من جهة الشرق سوق السيح المركزي يفصلهما طريق عثمان بن عفان، طريق من مسارين لطالما ركضت عليه أحلام الفتيات، والتقت عنده أعين المحبّين، وسقطت قُربه قلوب الفتيان الهائمين، نسوة تتمازج وتتصاعد أصواتهنّ ببطء، يتبعها ضحكهنّ المائع، عجائز يدارين ملامحنّ عمّا يرين، وشيخ يجول ببصره في ممرات السوق، وأزقته الفائحة برائحة الذكريات، وصور الأيام الخوالي.

* * *

كنت أقف على بسطة فتون، وآخذ ما نقص على البيت من حاجيات، كل ذلك كان يتم بالدَّين، ولا شيء غير الدَّين، لقد خاط لي سعيد اليماني ثلاثة ثياب دفعة واحدة كلّفني كل ثوب 85 ريالاً طلبت منه تسجيلها في دفتر المديونيات حتى يعود البراء من غيابه، ويدفع له ما عليّ من مديونيات، بل قد تكون مديونيّاتي أخف مديونيات من مضاوي، التي لا تتوانى أن تأخذ إلى طابقها العلوي ما زاد عن حاجتها.

ذات عصر، والساعة كانت الخامسة من يوم الخميس، حشرت في كيس جلدي متين حاجيات عديدة من عند فتون، وكيساً من البقّال الملاصق للخياط سعيد اليماني، وكيسين من العطار، وكل ذلك كان ديناً.

يومها جاء البراء بعد خروج يُبرّره كعادته، وأنه في سبيل الدعوة إلى الله، والنيل من الكافرين والفاجرين والعلمانيين والفاسدين والمفسدين، كل هذه العبارات التي يسوقها عليّ كل ما جاء من مخيم، أو تجمّع دعوي كما ينعته على الدوام، أخبرته أني استدنت ما يحتاج سداده عاجلاً حتى لا تتراكم المديونيات عليه، فأنا ومضاوي نستدين باسمه، فكل أهل السوق يعرفونه رغم أنَّ أغلبهم ليسوا على علاقة جيدة به، فقد لاحظت امتعاض الكثيرين حين أخبرهم أني زوجته، فأرى تردداً واضحاً في تسجيل الدين، وتعليق دائم كل ما جئت لأستدين:

ـ هالمرَّه بس.. المره الجايه ما نقبل إلا نقدي.

إلّا أن البراء يسارع في سداد كل ما دوّن عليه في غيابه، طبعاً بعد مشاجرات صغيرة بشأن السعر، تنتهي بتأفف أصحاب المتاجر، وتنازلهم عن جزء من المديونية.

يعود بعدها منتفخاً انتفاخ المنتصر، فينام في فراشي ليلتين، وليلتين عند مضاوي، وفي صباح كل يوم يجلس على سفرة الإفطار بزهو الذي استطاع تحقيق العدل بين زوجتين، كنت أصنع له خبز المراهيف المصنوع من طحين البر الخالص، وهو من أشكال الرغيف الذي يُصنع على

شكل دوائر صغيرة. مضيفة عليه بعض التمر وقطعاً صغيرة من البصل البلدي، يبتلعه ابتلاع السبع للفريسة، ثم يدلق خلفه خمس كاسات صغيرة من الحليب، أسكبها له من إبريق شعبي صغير صُبغ هندسياً باللونين الأحمر والأبيض.

IV

رغم أنّ البراء بلا عمل، إلا أني احترت من أين يأتي بالمال، فقد ترك عمله الأول في التعليم، فتم فصله من عمله الثاني في وزارة الأوقاف، جرّاء تغيبه لأيام طويلة عن الحضور، حصوله على المال لم يؤرقني كثيراً لظني أن متديّناً مثله لا يسطو على مال حرام، ولا ينوي حتى لمجرد النيّة.

أذكر جيداً تلك اللحظة، تلك الليلة التي دلف إلى غرفتي وأنا عروس جهّزها أهلها لليلة كُنتُ أسير نحوها أعواماً كمن تصعد بخطوات هادئة على سُلمٍ درجاته من الذهب، وفي نهاية السّلم من الأعلى يقف رجل سار كما سِرتُ إليه، كان في يقيني أن رجلاً ما ينتظرني ليذهب بي إلى شرفة الحلم، تماماً مثل ما انتظرني هو لآخذه إلى غُرفات الحب الواسعة، إلا أن الواقف في رأس السلم، دفعني وأحلامي لنهوي على العتبات فنتحطّم أسفله.

تُغيضني أنفاسه الثقيلة التي لا تجيء باللطف ولا بما يثير الحب، لعلّة زادت حياتي علّة، هي أن علاقتنا لم تكن رطبة بالموسيقى والغناء،

فقد كان عهدي بها بعيداً بعيداً، يوم كنت فاتنة الحي، أجلس على شباكي، أزحف بعينيّ الفاتنتين على الطرقات المؤدية إلى السوق، حيث الزبائن والباعة والنسوة والأطفال، الذين لهم رائحة الحياة، أغبطهم على ذهابهم للسوق كل لحظة، وأمعن ببصري أكثر، وأذني مصغية إلى عبدالمجيد عبدالله، وهو يغني:

"استكثرك وقتي علي وغدا بك
عادة زماني كل ما غاب هوّن
ليت الذي ودّاك يا زين جابك
تشوف عقبك كيف الايام سَوّن".

لم أسمع أغنية بعد أن ولج البراء حياتي، فلم يترنّم مزاجه بأغنية يوماً، ولم يتجمّل فمه بلحنٍ ليلة، ولم يتمايل جسمه الثقيل على أغنية منبعثة من التلفاز يوماً، بل لم يُغنِّ لي ولو مزاحاً، فقد غابت الأغاني عن حياتي بالكلّية، وغدت علاقتي به غير رطبة بالحب والغزل، وكيف يكون للحب والغزل مكان مع من يرى الغناء حرام، واستماعه حرام، وتداوله أشد حرمه، لقد أشرف بنفسه على إتلاف أشرطة الأغاني التي جلبتها إلى البيت، ليلوّث سمعي بأشرطة لا تعرف غير لغة الويل والوعيد، حتى تشرّبت هذه الثقافة القادمة من أفكارٍ لا تتحرك بغير معاني الموت.

V

في الصباح تتراخى الشمس وكأنّ ضوءها لزجٌ على الجدران والسقوف، يعبر بصيصٌ زائدٌ من الضوء ليفتق العتمة، ويمرق من خلف فَجَوات ستائرٍ شفّافة بيضاء قصيرة، لتعوم أرضية الغرفة بالنور، فأصحو ببطء .. الشوارع الضيّقة .. صرير عجلات العربات على الأسفلت، شاحنات نقل الألبان، وعربات نقل مواد البناء.

بقربنا خَرَابات تُقابلها بناية من أربعة طوابق، مزدحمة بالشقق، تجاورها بناية أخرى أُغلقت من أعوام، قيل أنها أُدخلت ضمن مشاريع حكومية على وشك التنفيذ، عند شارع يخنقه الزحام والضجيج، مُتصل ببناية شبه كبيرة مرصوصة أمامها بضائع وأمتعة قديمة، وطيور في أقفاص خشبيّة، وأخرى لأرانب، وأخرى فارغة بلا أبواب، أمامها بُسطٌ عريضة، صفّت عليها أسلحة بيضاء، وأدوات منزلية عتيقة، وجمهور من المتسوّقين والمتجوّلين والعابرين.

أما البيت الذي أسكنُ فيه، فقد بُني على نظام عمرانيٍّ يُسمى الصامت، وهو مفهوم شعبي لدينا وفي أماكن كثيرة، معناه أن البيت بلا فناء بالمطلق، بحيث يفتح بابه للداخل إلى عمق البيت فوراً، وهو بناء مسلّح بالحديد والطوب والأسمنت، يخترقه من الأعلى مَنْوَر، وغالباً مَنوَرَان، هو عبارة عن فتحة مربّعة تنطلق من أسفل البيت حتى تفتح عن ارتفاع السطح ما يقارب نصف المتر أو أقل، ابتكرت هذه الهندسة لتضمن التهوية المناسبة للغرف التي تفتح شبابيكها على المنور من أسفل، وكذلك أداةً لخروج الدخان من المطبخ إلى السطح.

واجهة البيت ينتصفها باب واحد فقط من درفتين حديديتين خضراوين، دُقَّت عليهما زينة حديديّة بلون ذهبي، تُزيّنه شرفة نسمّيها شعبياً: بلكونه، كان عبارة عن طابقين، عن يمين الداخل يأتي السّلم الأسمنتي المؤدي إلى الطابق الثاني، الذي أسكنَ فيه ضرّتي مضاوي بعد زواجه منّي بعامين وأشهر ثلاثة، فنحن لم نُرزق بالذرية، مع هذا لم أسأله يوماً أيّنا اختاره الله عقيماً، فهو مذ تزوجنا ينافح عن أهمية التعدد، وأنه أصل في حياة المسلمين، وضرورة حتى وإن كانت غير ملزمة لدى الكثيرين لأنه اقتداء بسنة أشرف الخلق، وليته برّر بهذه الإباحة عدم إنجابه للذريّة لكنت وجدت له عذراً بحجم البعير.

كان الغروب في أيام المواسم مصاحباً للمطر والرياح التي تشعرني أنها ستقتلع البيت، وحين يتمدّد الليل كغول ضخم مخيف، كانت السماء تمطر بعدها، فأمضي أبكي تحت الماء الذي يخرّ من السقف،

منتظرة أن يأمر الله الوبل بالوقوف، في وقت يمضى الذعر يركض سريعاً في عظامي.

أذكر يوم اختطفتْ نوبة عطاس ثقيلة أنفاسي، وآلام وحمّى تصفق في جسدي، وأنا أنظر إلى مضاوي وهي تضع القدور ليتساقط الماء المتسرب من ثقوب السقف، والمطر ينهمر بصوت صاخب، أتذكّر الآن جيداً راحتيها والشقوق التي بَرَزَت في خطوط يدها من التعب، أثارٌ حمراء لجروح لم تلتئم.

لقد اعتدت بعد كل موجة برد ماطرة، أن تظلّ حالي تتجاذبها الحمّى والبرودة اللتان تتعاقبان على أطرافي وعظامي، فترات صحوة قصيرة، تفصلها نوبة إثر أخرى، تحوم حولي أطياف متعدّدة أحدها طيف أهلي الذين بالكاد ألتقيهم في العام، كانت تصلني أصوات تُكلّمني لكني أعجز عن معرفة أصحابها، إذ سرعان ما تتمازج وتذوب معاً، لأقع أكثر في الحمّى.

أتذكّر كل هذا الآن، وأنا في قلب السوق، المكان الذي هدهد روحي حين كان البراء يجرّحها بعلاقة مثقوبة من كل جهاتها، أتذكّر ذلك وأنا واقفة عند بسطة فتون، البسطة الطويلة المكونة من قماش فرشت عليه بضاعتها الشعبية، ونثرت بعضها على أطرافها، منادية بصوت مخدوش:

ـ حمّلات صدر، عطورات، حلاوة تزيل الشعر، ديرم بعدة أشكال.

نسوة يحدّقن فيَّ بحدّة، ومراهقون يلمزونني بعبارات خليعة، وشيوخ مُتصابون، ذوو ذقون حليقة، تأكلني نظراتهم المليئة بالاشتهاء، هذا خلاف كركرات النسوة المنبعثة من ركن لبيع البخور، حين تتمازج وتتصاعد أصواتهنّ حتى تبلغ سمعي:

ـ هذي عيُّوش ما عرفتيها؟!

يتبعها ضحكهنّ المائع، فأداري ملامحي عنهنَّ، لاعنة البراء في خلدي، أجول بعدها ببصري في ممرات السوق، وأزقته الفائحة برائحة الذكريات، وصور الأيام الخوالي. نهرتهنّ عجوز تتبضع من بسطة فتون وهي تفتح علبة اكسسوار صغيرة لحفيدتها القصيرة:

ـ بس بس وش هالحكي يا حريم.

اعتدلت لحظتها فتون بعد أن سحبت عباءتها على قميصها الأخضر لتستر شحم بطنها المائل إلى اليسار، فسقطت ثلاث أسطونات للغاز، من حوض سيارة نقل صغيرة، كان صبي يحاول تدارك ذلك واللحاق بها متدحرجة، وإعادة تحميلها، فدخل إلى السوق ثلاثة شبّانٍ مراهقين، مهرولين، يلعب اثنان بعلب السفن أب الزجاجية، ومسبحة صفراء تدور في يد ثالثهم، لم يجلسوا في مكان، بل ظلوا واقفين قرب حانوت بيع المستلزمات الرجالية، يمسك ثالثهم بدرفة الباب، واثنان يدّعيان التبضّع، ألقوا أعينهم سريعاً إلى النسوة المتحلّقات وقوفاً على بسطة فتون، وضحكوا همساً، فتدحرجت أعين النسوة إليهم في استنكار، فقالت العجوز بعد أن تحسست بأصابع يدها اليمنى خدّها

الأيسر، وضغطت قليلاً عليه فطارت آهة ثقيلة من حلقها، برهاناً على لثّتها الملتهبة، ثم ألقت عينيها بأعين المراهقين، فأشارت لهنَّ أن ينهضن، فنهضن، تاركات خلفهن البضائع ملقاة بأكياسها الرديئة على بسطة فتون.

لقد توطّدت علاقتي بفتون مذ لقيتها أول مرة عند محل صغير لبيع الشاورما، القريب من شارع الخياطين، كانت منحنية على شباكه الألمنيوم الممتد نصف متر إلى الخارج، استدرجتها في الحديث معي، كانت هي المرة الأولى التي أرى في عينيها الصغيرتين تاريخاً من أحزان الشعوب، أخبرتني بعد أسابيع من علاقتنا أنها هربت من سورية عام 1982م بعد مجزرة حماة التي ابتلعت نارها الكثيرين، حين سعّر النظام الحاكم فيها أكثر الجرائم بشاعة.

كانت تروي لي فظاعة الفجيعة التي حلّت بها في حماة، فهي من أم سورية وأبٍ فلسطيني، لقيا حتفهما في تلك المجزرة، وروت كيف تدبّرت وضعها مع سائق شاحنة سعودي، استطاع تهريبها حتى أوصلها إلى الحدود الأردنية، هناك وجدت رجلاً من بادية الأردن، بعد مفاهمة تمت بينه وبين سائق الشاحنة السعودي، سهّل لها مناخاً جيداً لفترة تجاوزت الشهرين، استخرجت فيها أوراقا ثبوتية من حكومة الأردن، ومنحتها فرصة مزاولة حياتها من جديد، بعد أن كادت أن تنزلق بين فكّي المجزرة التي التهمت مدينة حماة تلك السنة.

وبعد محطّات من التبعثر، والحيرة، والأمل الضيق، منحها القدر المحطة التي شاغلتها عن كوابيس المجزرة التي خطفت أهلها جميعاً، وبدّدت مخاوف ملاحقة النظام للهاربين من ألسنة نيرانه، فباتت بسطتها مركزاً لتبضع نسوة الحي وما جاوره من حارات صغيرة، نساء القبائل والعوائل التي تسكن قُرب السوق الداخلي، جعلن من بسطتها نقطة توقف حين يجئن للتبضّع صيفاً وشتاءً، وصارت فتون تقدم فنّ انتقاء المستحضرات والمتطلبات والحاجيات اللاتي تطلبها النسوة بمختلف أعمارهن وأمزجتهن، فقد برعت في جذب أنظارهن إلى روعة اختياراتها، ودقة عرضها لبضاعتها، وحُسن تواصلها مع زبائنها، حتى غدت آية من آيات السوق الداخلي.

VI

حين تضرب العتمة طوقها على الشوارع المحيطة بالسّوق الداخلي، ويسكُبُ السكون فوق الأسطح والأزقة الضيقة، المتراصّة على امتداد حي السليمانية، يتوارى كل صوت صاخب، وتنخرس كل عربة تعبر مسرعة، ويَخمل جهد المتبضّعين، وتنير مصابيح المتاجر ما أمامها، بنايات أكلها القِدَم، صغيرة الشبابيك، مجدورة الطلاء، تفصل بينها شوارع ضيّقة حُفّت بغبش ثقيل، وكأنها ذاكرة لا تنطق لغير المارين.

بدأ المساء يكبر شيئاً فشيئاً، باعة جوّالون خائرون في السنوات الطويلة التي تثقل عظامهم، من وجوههم يبرز التعب والشقاء، يرون أنهم غرباء مذ أولجتهم الحياة في صخبها، يمرق من بينهم شيخ كبير يمر بشارع جرير، نحيل غامض، على ظهره حقيبة من الصفيح، يتوقّف عند مدخل الشارع، مطلقاً صرخة طويلة:

ـ ما فيه سيارة تودّيني العاصمة؟!

تطوف بساقيه قطط صغيرة مرفوعة الأذيال هزيلة الظهور، تراوغ بعضها، وضع حقيبته الصفيح، حيث الشارع نشطٍ بكل حركة، حكّ رقبته مطيلاً النظر، لم يتحدّث مع أي إنسان كما لو أن السوق بلا أحد، بكى بصوت بائس، فاجأه أحدهم يُناشده السكوت، ألح عليه أن يحكي ما به حتى يتمكن من مساعدته، إلا أنه استمر في البكاء وكأن الدنيا قد فارقها البشر، وبعد وقت من المحاولة استجاب ساكتاً، ثم انطلق يشتم مستخدماً ألفاظاً في غاية الفحش، اخترق صوته سمع من حوله ودموعه تسقط ببطء وبكبرياء عنيد، ثم أدار ظهره للسوق مدبراً.

أما شارع جرير، فطويلٌ يخترق سوق الرجال، ممتداً من شارع الخياطين شمالاً، حتى يُطلُّ على طريق الملك سعود جنوباً، تتقابل على طوله متاجر تبيع كل ما يخص الرجال من ملابس ومشالح وخياطة وتفصيل وأحذية وكماليات واكسسوارات، يمرق من أمامها نسوة قرويّات وأخريات بدويّات، تخالطهنّ عربيات وأعجميات، وفتيات ملفتات جميلات وأقل من جميلات، كان شباب المدينة ينسجون على هذا الشارع الغراميات العريضة التي تتجاذبها الأعين، ويؤكدون أمنيات القلوب التي تفجّرت وَلَهاً يوم التقت بالحسناوات اللواتي يذرعن السوق متبضعات، وهنّ يتفرّقن جماعات كقطعان الظباء، وأخرياتٍ يتناسلن عائدات إلى الحارات القريبة والملاصقة للسوق، أعينٌ تنظر من أبواب الحكايات العتيقة.

هناك شارع الخياطين الشهير الممتد إلى الجهتين الشرقية والغربية، والذي يفصل الجهة الشرقية للسوق الداخلي إلى قسمين: شمالي وجنوبي، بينما شبابيك الخياطين تتقابل، مرتفعة كلها عن الشارع مقدار عتبتين إلى ثلاث عتبات من السلم الأسمنتي، كان يأخذ مسميات شعبية بالغة في السخرية: شارع المؤخرات، شارع المطئطات، كل هذه التعابير كناية عن انحناء النسوة على شبابيك الخياطين، فتبرز مفاتنهن وتحديداً مؤخراتهن، وهن يشرحن ما يرغبنه من موديلات وألوان لملابسهن اللواتي يلتزمن بإحضار مقاس خاصٍ يبني عليه الخياط الثوب الجديد.

أما الخياط سعيد اليماني، فلا علم له بشيء، وليس على اتصال بأحد، ولم يلتقِ بأحد إلا حين يأتين لتفصيل ثيابهن الطويلة المطرّزة بما يضفي عليهن لمسة ولمعة، أو لشراء بعض الحاجيات والمأكولات الخفيفة من البقّال المجاور له، كان يرانا نعبر السوق كثيراً وعيناه الصغيرتان تتدحرجان خلف المليحات من عابرات شارع الخياطين، أو المتبضّعات اللواتي يردن على الحوانيت القريبة من حانوته.

عمل في السوق الداخلي وهو صغير، وقد تجاوز الثامنة عشرة بأشهر، كان قد ترك حضرموت في ظل أوضاعٍ لا تسر، فهو أصغر من أنجبتهم أمه، أربع بنات وهو الخامس الذي تسبب في تلف قناة الإخصاب عندها ليضطر الأطباء وقتها إلى اقتلاعها خشية عليها من التسرطن الذي نبتت بثوره فجأة.

يُشاع أنه استدان مبلغاً يكفل أجرة الحانوت الذي أثثته برفوف قصيرة بلا أبواب، فتحاتها إلى أعلى، بجانبها طاولة خشبية ملاصقة للشباك الذي تطل منه أعين النساء من خلف البراقع والنقابات التي هي أشهر من أن يُعرف بها أهل المنطقة، أعني نجد، فقد كان في غليان الشباب، وفي وقت لا يفكر بغير رزقه رغم مروق الحسناوات على قلبه قبل شباك حانوته.

ترتسم بقعة داكنة أسفل عينه اليسرى منذ الصغر بسبب الجدري الذي أصابه وأعاد تشكيل جلدة وجهه قبل أن يقف على بوابة المراهقة، التي دفعته إلى عالم النساء، والمعاكسات التليدة في مطارح كثيرة في هذا السوق.

لم يألف الحياة في بداية عمله تلك الفترة، إلا بعد أن تعرف على مجموعة من العاملين الحضارم في السوق،وبدأ يأخذ على المناخ والطبيعة الحياتية هنا، فقد استطاع بفضلهم تأمين سكنه الصغير، وإعداد ما يلزم فيه، حتى صار بعد أشهر وكأنه عمدة السوق، فقد حفظ وعرف تفاصيله حجراً حجراً، زقاقاً زقاقاً.

بات الشاهد على تحركات من في هذا السوق الذي علمه الكثير عن حياة أهل السيح وطبائعهم وطرائقهم في المناسبات العامة والخاصة، بل بعد أشهر بدأ لسانه يعتاد على اللهجة المحلية إلى حد يطابق طريقة النطق، ومسافة الصوت التي تتشكل منه العبارات الشهيرة، والتي تسقط في سمعه صباحاً ومساء.

هنا في هذا السوق طُويت أكثر أيامه، وهو مستمر في حانوته يزحف حنينه بذاكرته إلى حارته في حضرموت، تصله مكاتيب صغيرة من أمه وأخواته، وفي المقابل يرد عليهن بما آلت عليه حاله المستقرة هنا، معللاً طول غيابه بنشاط العمل الذي تجاوز الممتاز، فقد صار على استيعاب كامل للهجة النجدية رغم اختلافها غير الكبير بين حاضرة وبادية.

أتيته أول مرة لأخيط ثوبي الأزرق المرقّط بالفضة، كنت قد ابتعت طحيناً أسمرَ وشيئاً من الحناء وبعض المكسرات الموزعة على أكياس صغيرة بحجم الكف، لقد أحسست أنه رأى في ملامحي الكثير من الإهمال الداخلي، بدا له من عيني يوم كنت أشرح له تفاصيل خياطة ثوبي، من صوتي شعر أني مُهدّمة الروح، أُرقّع ما ظهر مني حفاظاً على أنوثة قد تتضاءل مع الوقت الذي سيذوب في غياب الحب عن علاقتي بالبراء.

الغموض الذي يدور حول البراء، كثر الحديث عنه، ولاح في أفق المعلوم الاجتماعي أنه حامل لفايروس الفكر الجهادي، والنظرة السوداء لما في الحياة من ترف ورفاهية وتسلية، يسبقها نظرة كئيبة لكل ما يشكِّلُ حاجة من حاجات البشر في عصرهم، فقد بدا كل من في السوق يتجنّبه حين يعبر ممرات السوق وأزقته، متبضّعاً أو عابراً.

دلف البراء على سعيد في حانوته يوماً، بعد أن صرخ في النسوة الواقفات على شباك حانوته:

ـ تسترن والله انكن حطب جهنم

كان يُكرّرِها وكتفاه يهتزان بشكل مريب، وخاطبه بصوتٍ صاخب غاضب:

ـ اترك مسافه بينك وبين الشباك وانت تاخذ وتعطي مع الحريم تراك مُحاسب على النظرة الحرام.

ابتلع سعيد ريقه المرّ خوفاً من أي تصرّف مشاغب قد يقوم به البراء، فبدّدت خوفه أصوات النسوة المتعجّلات على شباكه:

ـ يا سعيد اخلص علينا تأخرت ثيابنا

تسمّر يوماً حين رآني قادمة بصحبة البراء، كانت تلك هي المرة الواحدة والوحيدة التي رآني بصحبته، طلب البراء ثوبي الذهبي المطرّز بالأبيض، وبعد إلحاح شديد منه ليخفّض من سعر خياطته لثوبي، وافق مُكرهاً، فقد اختطف أكثر من نصف قيمة جهده في خياطته وإخراجه في حلته البهية التي رآها.

أمّا شارع الطواحين، وما أدراك ما شارع الطواحين، فيقع بعد سوق النساء وسوق الذهب جنوباً ببنايتين، يمتد من الشرق إلى الغرب، حتى يضيق قليلاً، على امتداده تتراص بنايات من طوابق عدة، وكأنها تدافع بعضها، وتتناثر على امتداده بشكل شريطين متقابلين محال ضليعة في تقديم الطحين بكل أشكاله، تجاورها دكاكين المحامص المتجاورة، تشاركها محال العطارة المتنوعة، يتصاعد في عرضه الضيّق لغط العمالة الآسيويّة التي ليس من فطرتها التحدّث بصوت هادئ أو منخفض،

تتداخل مع هذا اللغظ أصوات النّسوة القرويات والبدويات اللواتي يفاصلن في الأسعار، تلتقي في نهاية هذا الشارع دكاكين صغيرة تبيع الملابس والكماليات وألعاب الأطفال، وبعض دكاكين خاصة لبيع العبايات بكل أشكالها.

VII

أواخر 1989حتى أوائل 1990م تتلمذ البراء على أفكار حركة طالبان، وبدت عليه الملامح الجهادية التي لا تأبى بغير قطع رؤوس كل من يخالفها أو ينحرف عن مبادئها ومفاهيمها، وخنق الحياة الاجتماعية حتى لا تكاد تتنفس، فقد تسرّب إلى تفكيره كل ما آمنت به هذه الحركة، وبات الطالب المطيع لخطبائهم، والمناضل الفظيع عن أفكارهم وأهدافهم، لم تغيره السنوات الست التي سبقت زواجه بي، فقد كانت تلك الأفكار تكبر رويداً رويداً، بات الفكر الذي تغذى على كُره الحياة هو الثقافة التي تُصدّرها المنابر، وتشجعها الأشرطة التي يتم توزيعها مجاناً عند إشارات المرور، ومداخل الأسواق، بات هناك ما يشبه الخلايا التي تشتغل لقاعدة كبيرة خلف الحدود.

صار البراء سيفاً مُسلّطاً علينا، بل أرسى في بيته المنقسم إلى طابقين كل ما يدعم مفهوم التشدد الديني بكافة مستوياته، وألَّا سبيل لغير الجهاد، ولا وسيلة غير السلاح والعتاد لدحر الأعداء، وأي أعداء؟!

لا أحد يعرف من يريد، مرّة يقول اليهود، ومرة يؤكد أنهم النصارى، وأخرى يبرهن على أنهم أصحاب الديانات الوضعية، وفي النهاية اقتصرها على جماعة ينعتهم بالعلمانيين، وأن قتالهم بات ضرورة ملحة لنصر الأمة، وأي أمة؟! لم يعرف أيٌّ من الذين يخالطونه مكان الأمة المقصودة بالنصر الموعود.

ترك عمله في التعليم بعد زواجه بي بعام وأشهر قليلة، ثم أتته فرصة العمل في فرع وزارة الأوقاف، إلا أنه لم يمضِ فيها وقتاً كثيراً حتى قال لي أنه تغيّب عن العمل فصدر قرار فصله نظاماً، كان كثير الجلوس عند منابر التحريض ضد كل ما هو جميل في الحياة، ومفتوناً بتوزيع أشرطة الخطباء الذين استحوذوا على إعجابه بنبرة أصواتهم، وأساليبهم في زراعة الكره في النفوس، فقد استمات يبذل جهداً خرافياً في توزيع أشرطتهم وكُتيّباتهم عند إشارات المرور، وعلى من يعبر من المارة.

يرى أن كل شيء في هذه الحياة حرام، غُّذِّي بالحرام، وقُدِّم بالحرام، والنيَّة مُسبقاً كانت من الشرِّ والشَّرُ حرام، كل هذا عاش القاعدة التي بنى عليها علاقته مع البشر، بما فيهم أنا ومضاوي، وأنهى عليها أحلامنا، وأمنياتنا، حتى التفكير بالفرح، وأده في أنفسنا، وأنسانا معنى حرية النفس، وبهجة الروح، وسرحان الفكر، وسعى جاهداً إلى تطبيق كل ما يدعم حقوقه كزوج، فأنا ومضاوي نسير خلفه كنعجتين مريضتين، أدركت بعدها مدى استفحال الأفكار الجهادية في رأسه المنخنقة بين كتفيه الممتلئتين.

* * *

ما زلت حتى اللحظة، احتفظ برسائل متبادلة بيني ومضاوي، خلال أيامٍ قصيرة قضاها البراء ماكثاً في البيت لا يخرج لغير الحاجة الملّحة، أخفيتها عنه في حقيبة عتيقة مرمية في عمق نافذة مغلقة بالطوب العاري من الأسمنت، القائم في سطح البيت:

(1)

مضاوي غاليتي،

مزاج البراء غير منتظم، يتصاعد للأسوأ وينخفض للبرود القاتل، ما زال كما هو يهذي أثناء نومه، ويحرّك يده متوعداً بقتل الأعداء، الأعداء الذين لم نرهم حتى الآن فأنا أكتب هذا السطر وأنا أضحك بشدة.

ألا ترين أن القدر ساقنا الاثنتين شريكتين في هذا العجل، اعذريني فأنا كلما جئت إلى تشبيه البراء بالعجل أضحك بشكل هستيري، فهو بالفعل لا يختلف عن العجل في مشيه وتمايله وملامحه.

تعلمين مدى ضعفنا الاثنتين، فأنا قبلك بادت كل محاولاتي بالفشل معه، وحين أفكر بالانفصال عنه أزداد خوفاً من العاقبة، فكأني أفضل الصبر عليه، لأن ما سيجيء بعد الانفصال قد لا يكون بأحسن ممّا أنا فيه الآن.

أختك عيُّوش

مساء الأحد 21/ 7/ 1419هـ

(2)

غاليتي عيُّوش،

أشعر بندم كبير على زواجي من البراء، تذكرين يوم حدّثتك عن زوجي الأول موسى، يوم خطفته مني حرب تحرير الكويت، لم أفكر بتاتاً بالنوم مع زوجٍ جديد، سامح الله أمي، وغفر الله لها، لقد دفعتني إلى حياة لست مجبرةً عليها، ولست مضطرة لها، حتى الآن لم يفارق صوت موسى سمعي، ولم تترك رائحته الفاتنة أنفي، ولم تغرب ملامحه البهية عن عينيّ الدعجاوين الحزينتين من بعده.

لم أعد مضاوي تلك التي كانت قبل البراء، فقد صرت أداة في يده، ومساحة ضيّقة يحشر فيها بنات أفكار مشائخه الشاذين عمّا هو طبيعي، وكل ما هو فطري، وكل ما هو سهل وعابر.

ضرّتك مضاوي

ضحى الإثنين 22/ 7/ 1419هـ

(3)

مضاوي غاليتي،

أعلم وتعلمين أن علاقتنا لا شبيه لها في الواقع الخاص بالضرائر اللواتي يعشن مع بعضهنّ في عراك يشبه عراك القطط، حين فاتحني البراء بزواجه منكِ وأنه سيُسْكِنُكِ في الطابق العلوي كما أسلف، كاد قلبي أن ينفجر من مشاعر البغض التي تشعر بها كل امرأة تجيء على رأسها ضرّة تشاركها زوجها، وإن كان البراء لا يملك ما يجعلني أغتاض أو آسف على اقترانه بغيري، وجعلي أعيش رقماً في حياة متعدّدٍ مهووس بالنساء لا غير، إلا أني أشكر الله أن زواجه الثاني لم يكن بغيركِ، فقد جاء بأخت لي لم تلدها أمي.

ثقي يا مضاوي أن الباطل سيسقط سقوطاً مدوياً ليكون عبرة وعظة لمن سيأتي بعده، ولمن يفكّر بأن يفعله فعله.

أختك عيُّوش

ظهيرة الثلاثاء 23/ 7/ 1419هـ

(4)

غاليتي عيُّوش،

شخير البراء البارحة يكاد يسمعه من يقف في أقصى السليمانية، لا أعلم متى يتخلص هذا العجل من عادته اللعينة هذه، استيقظت البارحة مراراً على علوّ شخيره، وتمتماته بأسماء صحبه الذين يخالطونه في المخيم الدعوي كما أسماه، تخيلي يجتمع كل هؤلاء العجول ليُناقشوا الحيض والنفاس، وشؤون النساء، بالطبع هم لن يُناقشوا حقوق النساء الشرعية والقانونية، هم فقط يجتمعون ليحدثوا قيوداً جديدة علينا، تمنيت لو أنهم اجتمعوا يوماً لابتكار ما ينفع الناس، أو اختراع ما يُريح المجتمع في تعاملاته العامّة، بدلا من تركه رهين تعاملات تقليديّة مريضة بالبطء والتأخر وقلّة الإنجاز.

ضرّتك مضاوي

صباح الأربعاء 24/ 7/ 1419هـ

(5)

غاليتي عيُّوش،

صباح اليوم تناول البراء إفطاره في صمت، لم يكلمني البتّة، شرع في مضغ إفطاره ببطء، وعيناه تسرحان في خيالٍ بعيد كما بدتا لي، سألته ما سرّ بقائه المفاجئ في البيت هذا الاسبوع، وإصراره على ألا نلتقي الثلاثة، رفع يده مشيراً إلي بالكف عن سؤال كهذا، وأشار بكأسه الصغيرة إلى إبريق الحليب، فسكبت له مرتبكة حتى امتلأ وفاض على كفه وأحرقها، فصاح متألماً: عميا ما تشوفين.

فانصرف من عندي عند الضحى، وهو يفرك كفّه الملسوعة من حرارة الحليب، بعد أن أخبرني أنه سينام الظهيرة عندكِ، ثم يقضي الليلة عندي.

ضرّتك مضاوي

عصر الخميس 25/ 7/ 1419هـ

الفصل الثَّاني:

مضاوي

I

كنت الثانية، والأصغر سِنَّاً، عيُّوش زوجته الأولى تكبرني بثلاثة أعوام، فقبل دلوف البراء لحياتي عشت ابنة عاقد للأنكحة، كان أبي يبتكر أساليب خبيثة في تزويج القاصرات، وفي إقناع المطلقات والأرامل بتكرار الزواج بعد تجاربهن الأولى، ليس حبّاً فيهن بل طمعاً في الكسب من وراء عقودهن التي لا تُوثّق وتعتمد بشكلها النظامي، وقيدها الرسمي، إلا بنقد المال قبل أن يضع الزوج إمضاءه على سجل العقود الكبير المفروش في حضن أبي.

ميول أبي الجهادية، وإيمانه الكامل بأن لا مكان للمرأة غير البيت، دفعني ببساطة لأكون زوجة للبراء، فبعد أسابيع من الإلحاح والضغط لإقناعي بأن رجلاً سيعوّضه رجل، رغم أنّ نتوءات موت زوجي الأول لم تبرح روحي بعد، إلا أني استسلمت لضغوط أبي التي نسفت حياتي الآن.

ولدت ونشأت وحيدة أمّي وأبي، وقد قُتل "موسى" زوجي الأول في نهاية يناير عام 1991م في معركة الخفجي لتخليصها من اعتداء القوات العراقية، جاء ذلك بعد احتلال العراق للكويت في أغسطس 1990م، فقد كان موسى ضمن الخط العسكري الأول لقوات التحالف المكونة من عدة دول بقيادة المملكة العربية السعودية، يوم تزوجته لم أكن على غياب تام عن أمور النساء، كنت أسبح في عمر الثامنة عشرة، قبلها لم أفطن لما يجري في حجرة الضيوف، يوم جاءت أمي وقبّلت جبيني قائلة:

ـ مبروك يا بنيتي غديتي مَرَه، وبيكون في حياتك رجالٍ تخدمينه بعيونك.

لم أكن أعرف ما هي المهام الجديدة المناطة بي، إلا أني فهمت أنه لم يعد بوسعي النوم في بيت أبويّ كما في السابق، أخبرني موسى بعد شهرين من زواجنا أنه تم إرساله للدفاع عن البلاد بعد تهديدات النظام العراقي لمدينة الخفجي الواقعة على الحدود السعودية الكويتية، وحين غادرني لم يعد، ظننته سيعود بعد أسابيع .. شهر .. شهرين، إلا أن الاتصالات التي تخاتل هاتف بيت أمي لم تكن تجيء بخبر، عدا اتصال على هاتف بيت خالتي أم موسى، جاء في فجر من أيام فبراير 1991م حين رن هاتف البيت، لم تصمد خالتي أم موسى أمام المتصل الذي نقل لها خبر استشهاد ابنها، عرفنا فيما بعد أن المتصل عسكري كبير يشغل مكاناً حساساً في تلك الحرب التي آذت المنطقة وأشغلتها لأشهر كأنها على قلوبنا سنوات.

لم أحزن على فراق موسى بقدر ما شعرت بالخوف ممّا حلّ بي، فلم يكتب الله بيني وبينه رحمه الله ذريّة، ولم يكن في تلك الشهرين الماضيين هيّنا، بل كان حين يدخل إلى فراشي يدخل كإعصار عنيف، يجرف كل شيء أمامه، ولا يخرج من فراشي إلا وقد أراق ما علق في مزاجي من رغبات، إلا أنّ كل أعاصيره العنيفة لم تثمر بالحمل، بل لم تُحرّك أحشائي بأي انتفاخ، ذهب موسى من حياتي، وكل ما قضاه معي هو شهران، مرّا كأنهما يومان.

* * *

وبعد أن طويت أيام حدادي، اجتهدت في أن أضع نقطة على سطر أخير من تجربة مضت، وبعد أن مرقت ستّة أعوام، دخل البراء حياتي من بابها الواسع، منحه أبي صك الدخول المباشر، باسم التديّن والمتدينين، وألّا مثيل لهم في حياتنا، وأنهم الحصن الحصين، ولا أنزه ولا أصدق منهم، بمجرد أن يضع الديكور الشهير: لحية طويلة وثوباً قصيراً ومسواكاً يعتلكه كما يعتلك البعير أسنانه، مُردفاً ذلك بعبارات اختصوا أنفسهم بها.

لم يكن البراء شخصاً عادياً، كما لم يكن متميزاً، مضت الأسابيع الأولى من زواجنا في صمت رهيب، يدخل ويخرج بصمت، يطلب مني كل شيء بصوت خافت هادئ، ينام معي بشكل متقطع، لدرجة شعرت فيها أني متزوجة من رجل آلي لا من لحم ودم، أتساءل كثيراً عن زج نفسي في زيجة كهذه، يوم فقدت موسى قتيلاً، مكثت بعده لا أنوي

العيش في كنف رجل، فما عاد هناك رجال يستحقون محبتنا ورعايتنا لهم، في تلك الفترة هبّت موجة التشدد التي طالت كل شيء، ودخلت أفعالها كل بيت، ووضعت بيضها في كل ركن من حياة أهل المنطقة، فحين تزوجني البراء أسكنني في الطابق العلوي للبيت العتيق الذي ورثه عن أبيه، بينما كانت عيُّوش مقيمة في الطابق الأرضي، لقد أمضيت ليالٍ أسمع صراخهما.

كان ينام ليلة عندها وليلتين عندي، محتجّاً بأنّي عروس للتو، ولكنه نوم كالسرقة، فبمجرد أن يصحو صباحاً حتى يلتقط نفسه وينطلق إلى ما يسمّيها بحلقات الذكر، ومجالسة الصالحين، وكل ما لمحت له بأني عروس وعليه المكوث معي، يستعيب تلميحي إليه.

رغم تعدد الزوجات في حياة البراء قبلي إلا أنّه لم يظفر بمولود واحد، وهذه من رحمة الله، فكم سيكون مأساوياً حين يلج مولود إلى حياة كهذه، معاناة البراء بحرمانه من نعمة الإنجاب، كانت وراء تمخض عقدة الولد في نفسه، فقد بات يتزوج ويُطلّقُ تباعاً كما لو أنه يثبت في كل تجربة سوء حالته في الإنجاب، لقد أبطأ يتمنى مجيء ابنٍ ليسميه عمّاراً ويُلحقه بالمجاهدين، لكن عماراً لم يجئ .. ولن يجئ، وعدد المجاهدين سيتضاءل، فحالة العقم تتضخم عند البراء كل يوم، تماماً مثل ما تتضخم في نفسه عقدة الكُره للحياة والناس، ولمخالفيه خاصة.

أمضى زمناً يرى سُنة التعدّد من أعلى المراتب، ضحكت ضحكاً كالبكاء، لأن البراء فاته أن يُحيي الكثير من الفروض والواجبات الفائتة والتي لم تُفعَّل بعد، فماذا بالسُّنن؟!.

II

أسكن في الطابق العلوي وعيّوش في الطابق الأرضي، في حي السليمانية الصغير، الذي تتلاصق منازل سكانه بشكل شعبي واضح في طريقة بنائه، وطرقاته الضيقة التي تنبعث منها رائحة الحميميّة الأصيلة، أغلب ساكنيه من أصول نجدية خالصة، عدا البعض من مناطق أخرى، كالحجاز وتهامة والأحساء وشمال الجزيرة، وبعض الأسر الفلسطينية، والحضرمية، لم أتغلغل بشكل جيد في بداية حياتنا هنا إلا بعد أشهر قليلة تعرفت فيها على فتون ونسوة أخريات، حين كنت وعيوش نجيء إلى السوق الداخلي وكأننا ملاحقتان، وقتها كان البراء في سفرٍ كعادته.

نسوة كزهور الأرض، كُنَّ يأتين إذا الشفق غاب، حسناوات مليحات لا يصطحبن طفلاً كبقية المتبضّعات،تشغل على الدوام أجَسَادهنّ البهيّة أبصار الحيارى، وكيف يزداد الشيخ صِبَاً حين يلتحم بهنّ بصره، لم تفارق أعينهنَّ الدعجاوات أعين الهائمين، فنظراتهم السخية إليهنَّ لا تغيب.

أبطأت كل ليلة أرى كيف يبدو هدوء الحركة في الشوارع المحيطة بالسوق الداخلي، ساعة أطفأت الحوانيت أضواءها، وعلت أصوات قرقعة الأقفال الحديدية في أبواب شدّت ليأمن الباعة على بضائعهم، وتداخلت أصوات الحضارم الذين ألفنا تمركزهم في أغلب الحوانيت، نِسوة يتناسلن عائدات إلى الحارات القريبة والملاصقة للسوق، أعينٌ تنظر من أبواب الحكايات العتيقة.

تربطني بالبراء صلة قرابة بعيدة، فأنا وهو نلتقي في الجد السابع، ولكن هذه القرابة وهذا التلاقي في ذلك الجد الهالك على طريق الحجاز في زمن مضى لم تنفع البراء بشربة ماء، فقد كان كل أقربائه يتجنّبونه، بل لم يكونوا حريصين على دعوته إلى مناسباتهم الخاصة والعامة، لأنّه لا يتورّع عن إمطارهم بوابل من الوعظ والاستشهاد والاسترسال في سرد طويل عن محرمات ابتكرها مشائخه.

البراء وحيد أبوين قرويَّين، ورث من أبيه صعوبة الإنجاب، فقد حبلت به أُمه وهي ابنة تسعٍ وثلاثين، وأبوه ابن أربعٍ وخمسين، إلا أنّها لم تهنأ به، ولم تمطر عليه بأمومتها، فقد ماتت وهي نَفْسَاء، وأظن أن الله رحمها بموتها قبل أن ترى البراء وهو يتقلّب على نار كُرهه للحياة والناس، لقد عانت في فترة النفاس، في زمن كان الطب ليس بهذه القوة والحضور، بعد أن فتكت الآلام بأرحامها وتفشّت في بطنها، وكأنها تمزقها تمزيقاً، فكان الموت ليلتها في طريقه إليها، ليجدوها في الصباح ميتة والبراء رضيع

جوارها، ويداه تتحرّكان في الهواء، كما تتحرك الآن مُتوعدا الأعداء غير المرئيين.

وكأي رضيع يُبلى بفقد أمه، أرضعته زوجة خاله، ورُبِّيَ في بيت خاله أحد البيوت القديمة في الحي، القائم على طريق لا يتجاوز عرضها ستة أمتار، هناك كانت نشأة البراء، وانغماسه في أفكار ليست ببعيد عمّا هي عليه الآن، قيل أنه لم يكن يفكّر في اللعب مع أطفال الحي الذين يُكثرون اللعب قرب باب خاله، حين يخطّون أضلاعاً على الأرض لتكون حدودهم للعب الكرة، أما خاله فهو أحد خطباء ذلك الوقت، والذي عُرف أنه كان على سوء فهم للحياة كما هو البراء الآن، فقد رويت لنا الحكايات الكثيرة أنه كان المغذّي الرئيس لأفكار البراء التي تتلمذ على جدول خاله الحياتي.

من المرويات التي أكاد اختنق ضحكاً حين تُروى، أن خاله حين تزوج، ذهب في الصباح الباكر من اليوم التالي لحضور درس ديني، تاركاً عروسه وحيدة في البيت، كانوا يرون في تلك الدروس كل شيء، لدرجة جعلتهم في مثابرة ومرابطة في المساجد والجوامع على شكل جماعات متكيّفة مع أفكار بعضها وعلى وفاق تام، وانسياق عجيب خلف من يُمطرونهم بالدروس التي ما فتئت تُفرخ لكره الحياة قدر الجهد المبذول.

وفي كل مرحلة تجيء نفقد جزءاً من أقاربنا بسبب تعنّت البراء، ومجاهرته بأفكاره الجهادية، فتوالى بتر العلاقة معه كما تتوالى أسنان المنشار في قلب اللّوح حتى ينقسم نصفين، فقد صرت بالكاد أزور

أهلي، ولم يكن بتلك السهولة، فما آل إليه البراء من غموض وتغيّب بالأيام عن البيت، جعل أهلي لا يفكرون بأن يأتوا إلي إلا حين تقع الوقائع الكبار التي يكون البراء الطرف الأبرز فيها.

III

ظلّت نفحات السوق الداخلي الباعث الوحيد لنسيان تعاستي مع البراء، فصِرت أدخله قاصدة بسطة فتون، وأُجالسها بكثرة، حتى غدت مرتعاً للفيف نسوة كثيرات، يجئنها والجاتٍ مدخل السوق الشمالي، لم تغطِّ وجهها، فكّها السفلي تلوح عليه وشوم صغيرة متناثرة إلى قُرب عنقها، وشفتها دقيقة صغيرة، وفي عينيها الصغيرتين تاريخ من سنّها الكبيرة، إلا أن تفانيها وهمّتها كانتا تجدد دماء جسمها المرهق بعدد السنوات، نهداها متهدّلان إلى بطنها، عليها مسحة غامقة، هنا عند بسطتها يتجاذبن أخبار الحي، ومفاجآة السوق، وتتناقل ألسنتهنّ النُكات الخليعات، وتتناسل مع كل انتقال، حتى يختمن حديثهن بضحك يحيل أعينهن الواسعة إلى خطوط سوداء من شدة الضحك.

البنايات العتيقة أوسط حي السليمانية، تُقابل السوق الداخلي من جهة الشرق، تقع على طريق ضيّق ملتوٍ باتجاه السوق، تلفعه العتمة وتتكاثف على أرصفته، شبه ركام، وكأنّه مهجور تتصاعد منه رائحة

القِدَم، وتصرخ في أطرافه أشباح من قضوا بعد أن سكنوه لعقود، أعاليه نوافذ المنازل النائم أهلها، ومن شمال الطريق خلاء حتى تصطدم العتمة بمتاجر كبيرة، اعتادت الإغلاق في وقت مبكّر من كل مساء.

يعيش هذا السوق عاريا كمريض باتت مضارب الكي تتجنّبه وكأنّ لا جدوى من تطهيره بالنار، فما عادت ممرّاته تحتمل لهب الصيف ولا اندفاع العواصف الرملية التي تفرش صُفرتها عليه بشكل عشوائي، أما حين يميل طرف الشتاء، يعيش هذا السوق دُمية تُقلّبها أكف البرد، وتلهو بها غزارة الأمطار.

أما بيتنا فعبارة عن ممرّين عند دخوله، أنا في الطابق العلوي، الذي يتكوّن من غرفة جلوس، يُقابلها حمام وغرفة عبارة عن فراش دون شراشف، مجرّد غطاء مطويّ على شكل يساعد على الاستلقاء، بجانبه طاولة خشبيّة مستطيلة قصيرة، وسجادة واحدة مطوية جانباً.

أما الطابق الأرضي الذي تسكنه عيُّوش، فأسفل منه قبوٌ ممتد طويل، استخدم كمخزن للطعام وبراميل مخصّصة للخضار والفواكه، وأكياس الطحين، كان تلك فكرة ابتكرها أهل المنطقة يوم دارت رحى الحرب بين العراق والمملكة العربية السعودية 1991م.

كنت حين يتأخر البراء في عودته من مخيمات وتجمّعات صحبه المتدينين، أُغري عيُّوش كثيراً بالذهاب إلى السوق الداخلي، ومع هذا لم يسعفني إغرائي لها بالذهاب، ولم يأتِ تكراري بنتيجة، لكن عيُّوش أمضت تذكّرني بوعيد البراء بعدم خروجنا دون علمه، وأن ذلك من

المفاسد ومن المحرمات، ويدخل في حكم خروج الزوجة دون علم زوجها، فتطالها النعوت اللعينة، فاستجبت لخوفها، وصرت أُبحلق بصري في الرائحين والداخلين والخارجين من السوق.

تكيَّفتُ وعيُّوش مع أفكار البراء كثيراً، وتماهينا مع عُقَدِه المتزايدة، وما ذنب الحياة لنكرهها؟، لقد استمر البراء يُسَوِّق لمكذوب وضعيف الأحاديث، والأقوال والمأثوات التي تحّجم في نفوسنا أهمية الحياة، وتقوّض معناها في أعيننا، وغيرها من التشبيهات التي تُحقّرها وتجعلها صغيرة وتافهة، فغدونا شبه دميتين تتحركان تحت مقاساتٍ تنسجها أفواه الخطباء والمنتسبين للتدين آنذاك، فقد بات ما يهمّه منّا هو كيف نجيد إحكام خُمرنا، وتغطية وجوهنا وأكفّنا، وأقدامنا.

وبعد أشهر ازداد ابتعاده عن البيت أكثر، لدرجة أن زجّ بنا في انتظار دائم، وانشغال نفسي مرهق، حتى يوم لقيناه بالكاد أقنعناه بأن نتدبّر شؤون البيت في غيابه، وذلك لقرب السوق الداخلي من الحي، السوق الذي قامت جماعة بنفس أفكار البراء بتعليق لافتة قماشية على مدخله الشرقي، مُلئت بنوداً طويلة عن أحكام لباس المرأة، وفي حال لم تطبّق ذلك تكون قد تشبّهت بالكافرات والفاجرات والماجنات، لكزتني عيُّوش حين قرأت البنود المدوّنة على القماشة العريضة:

ـ إلا ورى ما ختمو شروطهم وقالوا: وأن يكون كَفَنَاً.

وبصعوبة أحكمت فكّي على ضحكة هستيرية من شدّتها كادت تحطم ثنيّتي للخروج من فمي.

IV

لم يزرني شك في مستوى أنوثتي، لكني أصارع ما يشبه الاستنكار الممزوج بشيء من الانكسار، فقِصر قامتي كان يمنحني شعوراً بالطفولة، وكأنني لست امرأة ناضجة لكن ذلك أيضاً لم يمنع شعوري بأنّي في منتهى الأنوثة، لم تحظ غرفتي بمرآة تُعينني على تأمل مفاتني مثل ما كنت أفعل قبل الزواج، استعرت مرآة عيُّوش، فتباهيت أمامها، زاهية بتقاسيم جسمي الذكي، قصيرة، نحيلة، نهدان كأنهما رمانتان، بطن زائدة قليلاً، شعري الواقع أعلى من كتفي بسنتمرات متوسط النعومة، ردفان صغيران لم تَصهَرهُما يد رجل بعد، استدرت أمام المرآة دورة كاملة، ثم خطوت نحو جهاز المسجل البنيّ ذو الحزام الرمادي، الشبيه بالصندوق، ودفعت في حلقه شريطاً ابتعته قبل زواجي بأيام، وتركته يدور جالباً الأغنية الأحب على قلبي بصوت محمد عبده، وأنا ماضية في رقصٍ بهي:

"لي ثلاث أيام ماجاني خبر

واعنا قلب المولع واعناه .. واعنا قلب المولع واعناه

آآآآآآآه

كن يوم الناس للعاشق شهر

لا سلام ولا كتاب ولا وصاه

آآآآآآآه

اتصبر يا معين اللي صبر

واتحرى غاية القلب ومناه

آآآآآآآه".

وعلى وهج هذا الغناء الزكي، كنت ألتفت إلى تفاصيل رقصي السريعة والخفيفة، ناظرة إلى نفسي بزهو لا نظير له، فتنة من ثمار الأرض، تتمايل تحت سقف عتيق، يهاديها ضوء الضُّحى المتدفّق إلى الغرفة كنهر ذهبيّ، لكن انسجامي هذا لم يدم لدقائق، فَقد قَطَعَ تلألئ ذاك النهر نداء عيُّوش من أسفل السلم:

ـ مضاااوي مضاااوي

أقفلت صوت المسجل وأجبت سريعاً:

ـ وشفيك عسى ما شر؟!

ـ لا يجي البراء الحين ويسمع الأغاني

ـ اييييه عاد هو جاهز بالحكي كني اسمع صوته من اول السيب: حرااااام اتق الله يا أمة الله

فتعالى ضحك عيُّوش من أسفل السلم، لأعارضها بضحك أكثر صخباً، ثم أعدت جهاز المسجل إلى صمته من جديد.

V

سمعته ذات ليل يبكي، بكاء الطفل أو أشدّ، تسلل بكاؤه من عمق الغرفة المجاورة، فانسللت من دفء فراشي واتجهت نحو الباب، وكلّي آذان تفوق صفاء الصاغية، تضاعف بكاؤه، وصوته المتقطع يتلو:

ـ واجعلني من الداخلين إلى جنانك والفائزين بالحور العين وعلى سُررٍ متقابلين.

استفزّني كثيراً، فدفعت الباب ببطء دون صوت، لأعطي بصري فتحة كشفت حاله التي عليها، كان اهتزاز كتفيه سريعاً يدفعه بكاء داخلي شديد، عندها فرش كفّيه الضخمتين، وراح يدعو بلسان ثقيل، ورأسه شديدة الانخفاض، لم يشعر بوجودي، لقد تباطأت عزلته في تلك الغرفة الصغيرة، باتت رائحتها حين يغادرها شديدة النتانة، مخنوقة لا يسمح بفتح نافذتها، ولا بجولة للمبخرة في فضائها الضيّق الموبوء بأفكاره الجهادية العلنية.

وحين يصحو في الضحى يبدأ بسرد صفات الحور العين، وكيف أن الله وهبها لعباده المخلصين، وبأن الإخلاص لا يكون إلا بحرب على كل من ليس على ديننا ولا على طائفتنا ولا حتى على نهجنا الحياتي.

بات يُغيظني كثيراً بتغزله المستمر بالحور، ورغبته المستمرة المدعومة بأفكاره الجهادية التي يراها مُبرّرا رئيساً للظفر بهنّ، فقد كان كثير التشكّي من وجود غير المسلمين في المنطقة، والذين كانوا في أماكن متفرّقة متنوّعة.

ذات ليل عاد من عند عيُّوش، وفمه يعتلك شتائمه، فطنت لخطواته على السّلم وهو يقفزه درجتين درجتين، طرق بابي في الطابق العلوي، لم تكن تلك ليلتي، وعلمي أنه نائم أسفل عند عيُّوش، كانت طرقاته لبابي بطيئة من خلفها فمه الواسع ينطق بالدعاء ببطء، سألت قريبة من الباب:

ـ من؟

ـ أنا

أدرت يد بابي واستل مسواكه الغليظ من جيب ثوبه العلوي، وأولجه بين فكيه العريضين، ودخل إلى أن وصل غرفتي، مُستنكرة مجيئه فالليلة ليلة عيُّوش، فقال لي:

ـ وش الجديد .. الإشارة حمرا. (جملة ساخرة تعني أن الدورة الشهرية واقعة)

فضحكت وضحكت حتى كدت أسقط على ظهري من فرط ما خالجني من سخرية:

- وجاي وش تبي عندي؟

لم يُجبني، بل تبرّم من سؤالي، وكل ما فعلته تلك الليلة أن حرّرت نفسي من قفطاني الرديء وتركت له حرية السقوط فوقي كما يسقط البعير فجأة على ناقةٍ تلوك عشب البرية في زهو، وما هي إلا ثوانٍ حتى غادرني ككلب سائب يحك جربه الملتصق بجلده.

في ضحى الغد، جاءت إليّ عيُّوش، وهي تستل اللعنات من صدرها.

جاهدت يدي اليمنى فمي حتى لا تفلت ضحكتي الساخرة وتصل إليه، فهو كالأشباح قد يخرج في أي وقت وأي مكان.

VI

غياب البراء المستمر عن البيت أقلقنا نحن الاثنتين، ما عدنا نعرف كيف نتزوّد بحاجياتنا، ولا استطعنا الخروج للتبضع بحكم قلة ذات اليد، فكلانا لا تعمل، والمال لا نكسبه بل كان من مهام الرجل في حياتنا تلك الفترة. لقد بات تغيب البراء عن البيت خصوصا وقت النوم يبعث الشك في نفسي، هبطت إلى الطابق الذي تسكنه عيُّوش، سألتها عنه، إن كان نائماً عندها، إلا أنها سألتني نفس السؤال، وما أن نثر القمر ضوءه الفضي على شباكي حتى دلف يترنح في وعيده المعتاد، وشتمه وقدحه في غير المسلمين، أخبرني ذات ليلة أنه سيذهب لسفر طويل قد يصل لأسبوع أو عشرة أيام:

ـ في ملتقى دعوي في مخيم من المخيمات القريبه مضطر أنام عندهم اسبوع أو أقل.

ـ وليش تنام في مخيم وأنت عندك بيت!!.

ـ الشيخ اللي مشرف على الملتقى مسوي جدول محاضرات وندوات وأنشطة دعويه.

داريت ضحكي على قوله إلا أني بالكاد قلت من شدة الضحك:

ـ أنشطة وندوات ومحاضرات في اسبوع ليه بتخترعون مركبة فضاء

فانتفخ وجهه وجحظت عيناه الصغيرتان:

ـ تستهزين بناس تحفهم الملائكه!.

ـ وليش ما تحفكم الملائكه عند نسوانكم؟ تاركين بيوتكم مهمّله ومتقابلين في هالمخيمات على قل سنع.

ـ الحكي معك ما يجيب فايده.

أشرت بيدي:

ـ مير انا الظاهر مالي فايده في حياتك إلا ان كان تشوفني طباخه والا شغاله.

ـ خليك عند عيُّوش وانا ماني مطول اسبوع ولا انتم في مقطعه حتى تشغلون انفسكم.

ـ طيب اشبك لنا التلفون شلون نعرف وين انت او على الاقل اتصل على اهلي.

ـ التلفون ما يصلح للحريم يالله .. يالله مع السلامه.

لم يمنحني فرصة السؤال، والتقط حقيبة ثقيلة، وبعض الأكياس البلاستيكية المنتفخة بلوازم لا أذكر أنّي شحنتها بل لم أرها من قبل.

غادر كعجل مرعوب ودون أن يودعني أو حتى يشعرني بأني زوجة سيتركها لأيام، غادر ولخبط أرجله ضجيج بسبب ضخامتهما، تاركاً في نفسي أسئلة تشبه الجروح التي لا تُبرؤها الأيام الطوال.

انطلقت إلى نافذتي، وفتحت قليلاً من الدرفة، مُرسلة بصري خلفه، لأراه يتحدث مع اثنين من الممتلئين قصار الثياب غريبي النظرات، يُوغلان يديهما في لحيتيهما بشكل متكرر متقطع، دليلاً على ارتباك ملتوٍ بحديثهما، وبعد حديث طويل ارتفعت فيه أصواتهم وخفتت، حشر حقيبته الثقيلة في مؤخرة السيارة، وركب رديفا لهما، وانطلقوا لأشاهد رأسه ويداه تتحركان وكأنه يُجادل بحدّة.

لم تتحرّر أصابعي العشر من بعضها من هول القلق الذي يأكل تفكيري، اضطررت للنزول إلى عيُّوش، لأحكي معها بشأنه، وما إن استوى الضُّحى على صفحة الحي حتى كانت في صالتها الصغيرة جالسة القرفصاء، وقد وضعت أمامها صينية فضية صغيرة عليها فنجال صغير، بجانبه صحن بيضاوي صغير ممتلئ بتمر الخلاص، أحد أشهر التمور في الجزيرة العربية، جذاب اللون، فاتن المنظر، ودلّة صفراء صغيرة مفتوحة الفم إلا قليلاً، تعطّ منها رائحة القهوة العربية، وشمس الضُّحى تنشر بقع الضوء على أرضيّة صالتها المفروشة بفرشٍ عليها أشكال هندسية بلوني الأسود والأحمر.

ناديت عند درفة بابها المفتوح على السلم المؤدي إلى الطابق العلوي، فأجابني صوتها ناعساً، دخلت وقدماي تطآن بقع ضوء الضحى المنشورة على الفرش، وبصعوبة سألت:

ـ تدرين عن البراء؟

ـ ما ادري عنه ولا أبي ادري عنه .. ليش وش فيه؟

ـ طلع البارح ومعه شنطه كبيره يقول بينام حول الاسبوع في مخيم دعوي.

قالت بتأفف يخالطه الكثير من الاشمئزاز:

ـ مقلاع جدي .. يا بنت الحلال فرقاه عيد جعلهم ياخذونه دايم.

دلقت فنجالها في جوفها وأضافت:

ـ نصيحه هالآدمي لا تدورين وراه انا قبلك شقيت لين شقيت.

كان كلامها رغم استهانته بأمر البراء مقنعاً، بل ومختصراً لشقاء قد تبذله نفسي وذهني وراء فهم خروجه الكثير ونومه بالليالي خارج البيت، عندها لم يعد قلقي كما كان.

مضيت شاردة دون أن تقطع عيُّوش حبل أفكاري الذاهب في اتجاهات شتّى، لم يكن يطنّ في سمعي وقتها غير صوت رشفاتها السريعة لفنجالها الغائص في كفّها البضّة.

وفي صعودي إلى الطابق العلويّ مساء، تآكل صبري، وتقلّبت على فراشي ككسيرةٍ تئنّ كل ما مالت بجمسها أو حرّكت عضواً، طرأ علي أن أنزل إلى عيّوش وأفاتحها بالبحث عن حلّ لما نحن فيه، وكل ما تذكرت استسلامها، وبرودها الذي أورثته لها خيباتها العديدة مع البراء،

أتراجع ويهدأ حماسي، فما كان إلا أن انتزعت ورقة من دفتر مدرسي قديم ملقى في غرفتي من أشهر، كان مساحة أُفرغ فيها ما يستحق أن أكتبه من يوميات، وما أخربشه من رموز ورسومات وأشكال هندسية، فتركت رسالتي لعيُّوش، وذهبت إلى غرفتي لأنام، لعلّ رسالتي تُحدث أمرا:

(1)

غاليتي عيُّوش،

أما ترين الحالة التي نعيشها الاثنتين مع البراء في نفقها الضيق المعتم المرعب؟! .. صمتنا هذا لن ينفعنا في نهاية الطريق، ما يقوم به البراء هذه الأيام لم يعد يريحني، بل لم أعد واثقة بأي شيء قادم سيكون البراء طرفاً أساسياً فيه، إن زوجاً كهذا من المحال أن نبقى بقية سنيننا ضمن حياته المتوترة الملغومة بكل المفاجآت المريعة، لم لا نعيد التفكير في حالنا هذه؟ أستطيع أن أنجو بنفسي وأكابد المرّ حتى أقتلع نفسي من حياته اقتلاعاً ولو كلّفني خسران الكثير.

فكِّري .. فكِّري عيّوش، أنت تُشعرينني دائماً بكثير من الفتور، فتورك الذي ما بِتُّ أراه مُخلّصاً ولا قاضياً على معاناتنا.

ضرّتك مضاوي

ضحى الإثنين 12/ 11/ 1420هـ

(2)

مضاوي غاليتي،

لا تزيديني، فما عدت عيّوش القوية الصابرة، تهاوت قوتي، وتبددت كل الحلول التي فرشتها أمامي قبل سنوات، جربتها كلها، حلّاً حلّاً، بل وكررت محاولة هذه الحلول أكثر من مرة، البراء يملك حصانة اجتماعية لا نملكها نحت الاثنتين، ومحفوفٌ بدوافع معنوية هائلة، وفرّتها له الظروف، وهيَّأها له الناس المحيطين به، بل هو في رعاية القوة الاجتماعية على كل مساحاتها ومساراتها.

حاولي أن تتروّي، لا أنصحك بالإقبال على أي مغامرة قد تكلّفك ما لم يكن في حساباتك، ثم لا يتغير شيء في حياتك، وتصبحين قد صببت الزيت على النار فيغشيك ارتفاعها.

أختك عيُّوش

صباح الثلاثاء 13/ 11/ 1420هـ

(3)

غاليتي عيُّوش،

ما معنى الحياة حين نستمر كخادمتين للبراء؟، فكما ترين هو لا يريد منا غير أن نصنع له طعامه، ونقدم له شرابه، ونغسل ونكوي له ثيابه، ونهيئ له فراشه، ما قيمة كل هذا البر به دون أن نسمع منه كلمة جميلة؟ أو نرى ملاطفة غرامية؟ أو ممازحة عابرة؟ وقبل كل هذا أن نكون في عينيه امرأتين ملكتين، أو سيدتين فاضلتين في قلبه، ثم ما جدوى الحياة حين حُرمنا نحن الاثنتين غريزة الأمومة؟ وانظري طول صمتنا على عقمه وصبرنا عليه، ولو كنَّا نساء غيرنا لاقتدنه إلى باب المحكمة، إمَّا إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

لا أخفيكِ تُثقلني الحيرة مثلك، وسأترك لقادم الأيام ما ستجيء به من الحلول دون رسمٍ أو بحث منّا.

ضرّتك مضاوي

ظهيرة الأربعاء14/ 11/ 1420هـ

VII

لم يعد وجود البراء أو غيابه مؤثراً، فقرّرت أنا وعيُّوش أن نستغل الليالي التي يطّل علينا فيها شهر نوفمبر، والمرور على السوق لاستبدال هواء صدورنا، وتبديد العتمة التي تُلاحق مزاج كل منا، يصبح ذلك مغرياً حين يبدأ الليل بأكل الحصة الأكبر من اليوم، ويجيء النسيم بعد العشاء منعشاً، مرحٌ عائم فيه كل الزبائن: أصوات ووجوه متمازجه، وروائح مألوفة وغير مألوفه، منبعثة من ممراته ومتاجره وأزقته ساحرة المتبضّعين والمتسكّعين والمارّين والقادمين لمعاكسة الجميلات، الذين ما إن يجدوا من تستجيب لغمزاتهم وتمليحاتهم إلا وينساقوا في إثرها ككلاب جائعة، حتى يُفسد عليهم رجلان وشرطي من جهاز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي كان لها سطوة كالحديد في نهاية التسعينات وبداية الألفية.

جرت المصائر التي وقف الزمن شاهداً عليها، كان المغيب يقطر على أسقف الحي، النسوة يحملن أكياس التبضع الورقية والبلاستيكية، يمسكن بأيديهن صبية لم يبلغوا السبع، ودون ذلك، وسيارة GMC،

يعتليها ثلاثة رابعهم عسكري، تجوب كل الشوارع والأزقة التي تحيط بالسوق، تتابع عملها في ملاحقة العصاة وإغلاق المتاجر أوقات الصلوات، بينما يصيح أحدهم باستمرار:

ـ تغطّي يا مره . تغطّي يا مره

يتبعه صوت ثقيل آخر من سيارة مجاورة مُنادياً بالصلاة، حياة تتوالى على نفس الشكل والطريقة، وهي تنتظر القرن الواحد والعشرين الذي بات قريباً من حياة أهل هذا العصر، باتت المشاهد تُعيد نفسها أمامنا، فتى في العشرينات، رأيته وقد وقف أمام الكافتيريا المقابلة لسوق النساء،حيث النادل الآسيويّ قد أدار ظهره مغلقا الباب الحديدي بخفة، سأله الفتى:

ـ ليش قفّلت؟!

ـ صلاه صلاه

ـ وكل الدكاكين تقفل وقت الصلاه؟!

ـ ايوه

ـ حتى الكافيتيريا؟

قالت زبونة:

ـ ثنين شاورما

أجابها النادل:

ـ الحين صلاه .. بعد صلاه

نظر الفتى بحبّ إلى الزبونة، وأطال النظر، فخاتله صوت أجهش قريب:

ـ تعال

تطلع إليه، فإذا بآخر جاء إليهما:

ـ تعال

انعطفا به إلى زقاق ضيق داخل السوق، وقال الأول:

ـ قف

قال الثاني:

ـ ارفع يديك

فتحسس جسمه بيديه الكبيرتين من أعلى إلى أسفل، إلى درجة أنّ الفتى كاد أن يُطلق ضحكة صاخبة حين مرّت يد الرجل على إبطيه، قال الأول:

ـ وين رفيقك؟

ـ من رفيقي؟!

قال الثاني:

ـ شلون؟

ـ ما اعرف وش قصدك؟

قال الأول:

ـ نعم

قال الثاني:

ـ معك اوراق ثبوتيه؟

ـ نعم

فأخرج رخصة القيادة وعرضها عليه، تطلّع فيها ثم في وجه الفتى، وبعد أن سعل سأله:

ـ من السيح؟

ـ نعم

ـ لا عاد اشوفك واقف هنا وقت الصلاه

ـ ابشر ابشر

لم يصدق أنه نجا منهما، فقد ظنّ أنه سيقع ضحية سوء فهم بينه وبينهما، دلف بعدها إلى السّوق باتجاه الشرق.

VIII

مُبكراً أرى النهار وقد دَفَقَ ضوءه على رؤوس البنايات الصغيرة، وَعَلَى صوت المركبات الصغيرة الغادية إلى مقاصد سائقيها، وتعالت أصوات طلاب المدارس وهم يقطعون الحارة جماعات متفرّقة، رأيتهم من شباكي ذي الدرفة الخشب، كانوا بثياب بيضاء بعضهم يحمل حقيبته على ظهره وآخرون يجعلونها على أكتافهم وآخرون يحملونها بأيديهم، وضحكهم وحديثهم لا يتوقف حتى يتجاوزون السوق مخترقين الحي باتجاه مدارسهم.

بدا السوق هادئا في ساعات الصباح الأولى، عدا بعض الباعة الذين يقومون بشحن بعض البضائع الخفيفة على دراجاتهم العتيقة، أو في أحواض عربات النقل الصغيرة، انتبهت لمكان فتون خالياً من بسطتها، بان لي أنها لا تأتي باكراً، قد تأتي في الضُّحى، حين تنشط الحركة في السّوق ويبدأ السكان بالتبضع صباحاً.

أكثر من عامين هو عمر زواجي به، أُحصي الليالي التي نامها معي كما لو أنه يُؤدي لازماً بالإكراه، فهو مُتعجّل باستمرار، خائفٌ باستمرار، وكأن هناك من يترصده ويتعقب أثره أينما ذهب وحيث حل.

بعد أيام قليلة شاغلني شك كبير أن البراء لا يتورّع عن فعل أي قبح كبير تحت ذريعة الدين التي لاحظتها عليه مذ تزوجته، إلى حد جعلني أخشى جريرة قد يأتي بها مع المقبلات من الليالي التي تشبه عجلته في كل شيء، فقد كان كثير الاعتزاز بإنكاره لمفهوم الوطن، واعتقاده الكامل بأن الوطنية مفهوم تسرّب عبر التغريبيين والأعداء، وأنه لا يدين بوطن لأحد، ولا يؤمن بكل المعاني التي مقصدها الوطن، بل ازداد تشنجاً وصار يروّج بأن الوطنية مفهوم مخالف للتشريع الإلهي، وأنه وسيلة لهدم التديّن في قلوب الناس، وأنه أحد أهم الطرق التي اتخذها العلمانيون الذين أسمع بهم ولم أراهم حتى اليوم.

مضت أيام لم أخرج، لتردّد حال بيني وبين أن أفكر حتى في الخروج، وما إن تفرّقت زيارات البراء على أبوابنا، حتى صار يمنح كل واحدة منّا ليلتين متواصلتين، تبدأ من السبت وتنتهي الأربعاء، فيختفي يومي الخميس والجمعة أيضاً، فلا نراه إلا ظهيرة يوم السبت، وقد بدت عليه ما يشبه الغبْشة، وعليه آثار القادم من سفر بعيد، وبعد أسابيع تغيّرت حاله فصار يجيء ليلة عند كل واحدة، ويغيب أربعة أيام متّصلة، فلا يظهر إلا يوم الجمعة، لقد كان يمنح المخيمات والملتقيات التي أسماها

دعوية ثلاثة أيامٍ من الأسبوع، وأربعة أيامٍ لنا الاثنتين، باتت الملتقيات والمخيمات وحلقات الذكر كما يُسميها أوفر حظّاً منّا.

بعد أشهر ازدادت حاله سوءاً صار شديد الغضب، بعيداً كل البعد عن واقعنا المعاش، منفصلاً تماماً عن شؤوننا كزوجات، في بيوتنا نحن الاثنتين قام بتنفيذ ما اكتسبه من فتاوي تُحرّم وجود التلفاز والمسجلة، والصور بكافة أشكالها، والأوراق التي يُلعب بها، واللهو الذي يُسلّي به الناس أنفسهم، بل صار كثير السؤال عن عدد مرّات خروجنا حين ينام أربع ليالٍ خارج البيت.

IX

في ليلة باردة من شتاء عام 2001م سمعت صراخه المنبعث من مسكن عيُّوش، كان صراخاً نشازاً أيضاً، ضحكت في نفسي ساخرة من سوقه للأقوال والعبارات التي تقوّض مكانة المرأة في الحياة، استماتته الدؤوبة على تحجيمنا نحن الاثنتين لا ينقطع بتاتاً، حتى صرنا نستنكر غياب عبارته هذه، حين يمر يومٌ بدونها.

صرفت ذهني عما سمعت، ودلفت إلى حمامي الصغير، كنت قد وضعت مرآة من نصفين مربعين بشكل طولي مُعلّقة على الجدار المقابل لصنبور الاستحمام، خرجت من ملابسي سريعاً، وتمايلت أمام المرآة أتابع أخبار مفاتني التي دمّرها البراء بسوء فهمه لها، لقد بدت لي بطن صغيرة بعد ما كنت ضامرة، نهداي الصغيران نبتت عليهما بثورٌ حمراء متناثرة، لم يعهداها من قبل، وكتفاي النحيلان صارا مائلين قليلاً، يستجيب لهما ظهري الذي أمسى مائلاً أيضاً، وكأنّي ابنة ستين عاماً،

أصابني شؤم تلك اللحظة لا أصدق أني تلك الفتاة التي تُبهرها مفاتنها في مرآتها قبل أعوام قليلة جداً.

قطع تأملي صراخه مرة أخرى، كان يتلعثم في شتائمه وهو خارج من باب عيُّوش، وخطواته تنزل ثقيلة على الأرض خارجاً، استمررت في تفقد مفاتني الأولى، انتبهت لشعري فقد لاح صلعٌ صغير على هامتي، وشعرات طِوال سقطت من شعري بلا سبب طبيعي أو غير طبيعي، نظرت في ساقاي وفخذاي، فهالني كيف نبتت عليهما تعرّجات حنطيّة دهنية تشبه الخرائط، تناسيت كل هذا وفتحت صنبور الاستحمام واستحممت تحت صراخ البراء ثانيةً مع عيُّوش، والقادم من أسفل، كان وقت استحمامي تلك الليلة يصلح أن يكون وسيلة من وسائل التعذيب.

وحين أنهيت استحمامي، وخرجت فإذا به قد دلف إلي ولسانه الثقيل لا يتورّع عن شتمنا معاً، داعماً ذلك بدعاء محقون بأسماء الموت وتفسيراته، فسقط على فراشي دون أن يغيّر ملابسه، فمذ تزوجته وأنا أبذل جهدي لتغييره إلى شخصية تعشق الحياة، لعلّه يغيّر من سلوكه وتفكيره المشحون بخطط الموت، إلى سلوك متفاعل مع ما في الحياة من جمال، إلا أنّ ذلك لم يكن.

X

في ليلةٍ من ليالي صيف 2002م، وقبل موت البراء بأشهر، عاد مبكراً قُبيل العشاء، تمدّد جانبي وعلا شخيره فجأة، انتبهت بعد لحظات لفمه وهو يمضغ كلاماً يريد دفعه على لسانه، بعدها جاءت حالته الزائرة، ومضى يصرخ ويتوعّد الخصوم، ويُنادي للجهاد ودحر العدو، هلوسات تختلط وتتمازج بعباراته التي ما انفكّت عن تفكيره المصدّر لها، فصحا يسعل سعالاً حادّاً، فأفجعني ارتطامه بمغسلة الماء، المقابلة لصالتي الصغيرة، وهو يُفرغُ ما في معدته بصوت مُتألِّمٍ صارخ، امتزج صوت ألمه ببكائه، وأنا أقف خلفه حائرة ما أصنع، هل أطلب النجدة من عيُّوش، أم أسارع في طلب الإسعاف من أي هاتف من هواتف المتاجر القريبة منّا، ضرب لحظتها بركبتيه صلابة القاع يطلب طبيباً، كاد الموت أن يسحق روحه، والحمّى تنغرز في عظامه كالسكّين، وهو يراني أدور حائرة،

كـاد أن يكـون ذلـك بعـد فَـوَات الحيـاة، إلا أن عيُّـوش تـدبّرت الأمـر وهاتفت الإسعاف من هاتف البقّال الملاصق للخياط سعيد اليماني.

في المشفى، وبعد حالة إسعاف دامت لساعات قليلة، نُقِل إلى حجرة تفوح منها رائحة المطهّر، فيها سرير صغير، بدأ طبيب آخر معاينته، تَلَمّس بطنه، وحين وَصَلَ إلى مكان الأمعاء تأوَه بشدّة، ثم تَقَيّأ سائلاًأصفر، نادى الطبيب الممرّضات وَأَمَرهُنّ بأن يَضَعْنَه في غرفة مجاورة. أُخذ سجلّه وكُتب على بطاقته المرضيّة: مريض باطنة.

كانت الغرفة صغيرة فيها سرير حديديّ وخزانة طويلة بيضاء، وطاولة قصيرة دائريّة، بقربه منضدة كلاسيكيّة، ورأسه على الوسادة، مرّر يده على بطنه، ثم بقيت ذراعاه ممدودتان وعروقه متشابكة فوق ظهر يده، في معصمه الأيسر مالت ساعة اليد نافذة البطارية، وفي بنصره خاتم فضيّ ذو فصّ أسود معيّن، وفي ذراعه اليمنى غُرزت إبرة موصولة بأنبوب يجري فيه سائل بلا لون، تتدفّق قطراته من كيس بلاستيكيّ، عُلّق قُرب السرير في الأعلى، وجسده مُغطىً بشرشف أبيض طويل أطرافه مُتّسخة.

شَفَتَاه منفرجتان، ووجهه كوجه الشارد، أطال ينظر في الكيس البلاستيكيّ وهو على وشك أن يدفق آخر قطرات فيه قطرة تلو أخرى، كان الألم قد هدأ كثيراً، أقبلت إليه الممرّضة بكوب ماء وحبّة دواء:

ـ خذ هذا الدواء

ابتلعها، وقالت مبتسمة:

ـ في حالة احتجت إلى شيء اضغط على الجرس
وأشارت إلى زرّ أخضر مربّع بجواره.

بعد ساعات أمضى ينظر إلى المِصْل في كيس الحقن وقد بقي القليل فيه، عادت بعدها ملامحه من الجفاف إلى الحياة، كانت شفتاه مُزْرقّتان، وبشرته طَلَتها سحنة شاحبة، وفي عينيه نظرة كَدِرة. بعد مكوثه أسبوعاً في المشفى، وصلنا السجل السريري الذي حرّره الطبيب المعالج:

الثلاثاء:

ألم خانق يطوّق ملامحه، أشارت لنا نتيجة التخطيط الخاص بالقلب أنّه قد يُصاب بنوبة قلبية.

الأربعاء:

تدنّى شعوره بالألم، نام يومان متواصلان، يتخلّلهما إفاقات قصيرة يصرخ عبرها، وينادي رفاقاً له، ويردّد عبارات بالغة في عنفها.

الخميس:

احتمال وجود تصلّب في الشرايين، ومن خلال تحليل البول ظهر أنّه معكّر وبه ما يشبه الزلال.

الجمعة:

آلام عصيّة قصيرة مرت به، ثم أحس بعدها بالارتياح، بعد أن تناول أقراصاً مهدّئة ومُعاجلة في الوقت نفسه، لم يطرأ بعدها أيّ تغيير على حالته بشكل عام.

السبت:

تناول المريض طعام إفطاره هذا الصباح، وأخذ قياس درجة حرارة الجسم، وأجري تخطيط القلب، وتحليل الدم، وبدا مستقرّاً.

الأحد:

ضغط الدم والنبض منتظمان، وفي حالات نادرة يميل ضغط الدم إلى الارتفاع.

الاثنين:

من صورة الأشعة صباح اليوم، تبيّنت بُقع ست على غشاء البطن، وتقلّص في بعض الأوردة الصغيرة، بينما يقابلها تحسن كبير في حالته العصبية العامة.

* * *

إلا أنه بعد أيام عاد يَرشحُ عَرَقاً، مُترامياً كالميت، مُتذكّراً عُمره المسروق من أفكار تخطّفته ومضت به في أنفاق الظلام الطويلة، ونهبت

أيامه تجمعات جعلت التطرف منهجها، وكره الحياة مبدأها، أبطأ وهو شاخص البصر إلى أعلى، راجف شاحب، وشفتاه منفرجتان عن ثنيّة عريضة، ينزّ من فمه لعاب ثقيل، وعروقه تفوح بالحمّى، انقلب إلى جنب وتقيّأ طويلاً، لكنه لم يفلح في استخراج شيء من جوفه، سقته الممرضة شراباً ساخناً، لكنه لفظه كله.

استحال وجهه كالموت شاحباً، وعيناه الصغيرتان بدتا مذعورتين، جذبه نباح كلاب أسفل نافذته ذات الستائر المسدلة، وصوت مراهقين يقذفونها بعلب النفايات، لم ينعم بنوم طيلة البارحة، أخذ ملعقة دوائه، ومدّ يداً أهراها الارتعاش، بعد أن جَسَّ وجهه الدامع برؤوس أصابعه .. أقرأته الممرضّة ورقةً صفراء ذات ثلاثة أسطر، فاستقرّ نظره على سطرٍ صغير يحتلُّ زاوية الورقة، ليقرأ بأنفاسٍ قَلِقة: مريضٌ لا يُرجى برؤه.

بعد أسابيع ازداد شعوره بالخيبة أكثر، ينظر في الممرّضات والأطباء بوجه مدهوش وعينين كئيبتين، كأن الشيخوخة خاتلته باكراً فهَزَمَت جسده، ليتَعَكّز على ذكرياتٍ قَضَمَ المرض أكثر من نصفها، فافتقده الممرضون والمرضى في ليلةٍ ماطرة، فأرسلوا باحثين عنه، ليفاجئوا به يابساً تحت مظلّة خشبية شيّدت على الأرض المقابلة للمشفى، مُخفضاً رأسه ويُكلّم طيفاً لا يُرى.

لقد تهاوى تحت وطأة الألم، يُتمتم وكأنّ النطق تعطّل منه، لتصير الوحدة والهدوء جليسين طويلين، لا همّ لهما إلا حرث خيبته وبذرها من جديد، إلا أنّ الله أنقذه في غضون أيام قليلة، فاستعاد عافيته، واستعاد

معها نظامه اليومي الذي وأد به عافيتنا ودفن به رغباتنا، أذكر أنه بعد أن تجاوز وعكته الصحية القاسية، قال لي ذات صباح أنه حَلُمَ في غمرة المرض: أنّه مُمدّد بين بحرين أحمرين، تُحيط به قبّتان خضراوان، ومن خلفه نسوة يَنُحنَ وَيَهْرُشنَ أعجازهنَّ، وإذا بِيَدِ شيطانٍ زرقاء تمتَدُّ وتخطفه.
لم أُعر لذلك أي معنى، كل ما فعلته أنّي هززت رأسي صامتة.

ومن الغد غاب لأيام، فلم يُعلم عنه شيء، وطالت الأيام وغدت أسابيع حتى جاء من يؤكد موته في العملية الإرهابية التي استهدفت بسيارة مفخخة مجمعاً سكنياً يسكنه المئات من جاليات مختلفة، لقد ترك البراء ورقة صغيرة اكتشفتها عيُّوش، دوّنها بخطٍ أحمرَ قاتمٍ مُتعرّج، يدلّ على قلقٍ صنعته نيّة الذهاب الذي لا تعقبه عودة:

"أنا أبي الجنه، والجنه ما تجي وأنا جالس عند حريمي، أبي الحور العين اللي الله وعدنا فيها، 72 حوريه ينتظروني أموت شهيد".

وفي المساء، وعلى قنديل نحاسي، بالكاد ضوءه يُنير، تلاقت رأسانا الاثنتان، أنا وعيُّوش، كان الحداد قد ضرب طوقه العريض على قلبينا، واستدار الدمع على أجفاننا الثقيلة، قالت عيُّوش بلسان ثقيل:

ـ أماتني قبل موته

أضفت:

ـ لوّعني في حياته، ولوّعني في مماته

أربعة أشهر وعشرة أيام، هي فترة الحداد التي قضيناها في هذا البيت، حزينات أو ندّعي الحزن، حتى نقضي عدّتنا، فقد كانت ثمرة حدادنا أن قرّرنا الاثنتين ألّا نتزوج برجلٍ يحلم كما يحلم البراء.

بعد قضاء الحداد، ولجنا حياةً خاصةً بعيدةً عن غَبَشِ الماضي وغبار مآسيه، يومها عَقَدنا النية بأن نبيع بيت البراء العتيق، خلاصة ما ورثناه منه، مع ما ورثناه من كُره الحياة كما كرهها هو قبلنا، بعد أن جمعتنا سنوات عجاف، وذكرياتٍ أثرها لا يُمحى.

مررنا بالسوق الداخلي، وعلمنا أن سعيدا اليماني قُبض عليه بتهمة التستر التجاري، ليتم ترحيله إلى حضرموت، وقبل ذلك بأسابيع عُثِرَ على فتون الفلسطينية مُتوفاة في شقتها الصغيرة في إحدى البنايات القديمة شرق الحي، كانت آخر مرّة لقيتها قبل أشهر، كانت بالكاد تمشي تحت شمس الرابعة عصراً، فسنواتها السبع والستون أرهقتها كثيراً، زاد ذلك على حزنها بعد وفاة ابنها الوحيد في حادث سيرٍ عند الإشارة التي يتقاطع عليها طريق عثمان بن عفان، وطريق الملك فيصل شمال السوق، والمحاذي لطريق الملك سعود من جنوب السوق، وذلك نهاية عام 1999م.

ها هو منتصف عام 2020م، وقد تلاشت الملامح الأولى للسوق الدّاخلي، بعد أن طاله الكثير من الترميم والتحسينات التي أعادت صياغة طرقه الرئيسية والفرعية، وبعد أن افترست الآلات الحكومية ما عَلقَ فيه من ذكريات، واستُبدِلَت حوانيت بأخرى، ومؤكدٌ

أن القادم من الأيام سيحيل ما بقي من ملامح هذا السوق إلى ألبوم ذكريات.

وما عتبات هذا السوق، ومداخله الشرقية والغربية، إلا الشهود العيان على ما جال وسيجول، فممرّاته الضيقة قبل الواسعة، وأزقته التي تلاقت فيها الأعين العاشقة قبل الخائنة، والصّدف التي زرعتها الأيام ما زال هذا السوق يحتفظ بها، وجوه تعرف بعضها، وقلوب باتت تداري وخز اللقاءات العابرة، وفتية يستعيرون الأغاني الشعبية لمغازلة الحسناوات اللواتي يعبرن أزقته وشوارعه.

انتهت

ماجد سليمان

مدينة السّيح، 2018 ـ 2020م

عنوان الكاتب

majedsuleimann@gmail.com

امرأتان، تتشابك مصائرهما حول التطرّف الديني، وتعدّد الزوجات، وانتفاء الحب، زوجهما المزهوّ بأفكار الجماعات المتشدّدة، والمهووس بالنساء لا يرى منهما إلا جسديهما، كان ينتظر أن يُرزق بولد ليُسمّيه عمّاراً، وينضم إلى المجاهدين، يكتشفان عُقمه فيداريانه بينهما لتجتهدا باحثتين عن سعادتهما في أزقَّة السُّوق الداخلي عند فتون الفلسطينية.

سِيرةٌ روائيةٌ مُركبَّةٌ من خليطٍ يتوازن بين الواقعي والخيالي.

ماجد سليمان، أديب سعودي

صدر له حتى الآن أكثر من 18 عملاً أدبيَّاً تنوّعت بين الشعر والرواية والمسرحية والقصة وأدب الطفل.

رقم الإيداع 501 / 1442

ردمك 978 - 603 – 03 – 5338 – 5